غوستاف لوبون

Gustave Le Bon

الكتاب : غوستاف لوبون
المؤلف : **د. فايز بن علي الشهري**
الطبعة : الأولى 2019
عدد الصفحات : 128
القياس : 13 × 19
الإيداع القانوني : 978-9954-705-51-3
الترقيم الدولي : 2018MO4707

جميع الحقوق محفوظة

المركز الثقافي للكتاب

الدار البيضاء / المغرب
6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان
الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

INSTITUT
DU MONDE
ARABE
معهد العالم العربي
كرسي المعهد

King Faisal
PRIZE

غوستاف لوبون

Gustave Le Bon

د. فايز بن علي الشهري

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

اللجنة العلمية

رئيسا اللجنة

عبد العزيز السبيل — أمين عام جائزة الملك فيصل

معجب الزهراني — مدير عام معهد العالم العربي

الأعضاء

بطرس حلاق — رشدي راشد

حسين الواد — فيليب بتريا

التنسيق

الطيب ولد العروسي

أميرة المنيعير

المحتويات

عتبة..... 9
مقدمة..... 11
- الاستشراق..... 13
- القرن التاسع عشر..... 17
- التواصل بين الثقافات..... 19
1 نبذة عن غوستاف لوبون وتكوينه المعرفي..... 22
1.1 غوستاف لوبون وقرن الاضطرابات الحادة..... 24
2 تخصصه وأبرز تجاربه العملية والعلمية..... 31
2.2 تخصصه..... 31
1.1.2 الطب..... 33
2.1.2 مؤرخ للحضارات الكبرى..... 33
- رحلته الأنثروبولوجيا في جبال تاترا عام 1881م..... 34
- الهند..... 34
- مناطق أخرى..... 34
3.1.2 مشاركاته العلمية وفي الحياة الفكرية الفرنسية... 35
4.1.2 علم الاجتماع..... 36
2.2 أبرز تجاربه العملية والعلمية..... 38

3 عرض لعينة من كتبه..... 40
- كتاب "سيكولوجية الجماهير"..... 40
- كتاب "تطور المواد"..... 41
- روح الثورات والثورة الفرنسية..... 42
- روح السياسة 43
- اليهود في تاريخ الحضارات..... 43
- حياة الحقائق 44
- الآراء والعقائد 44
- حضارة الهند 45
- روح الاشتراكية 45
- فلسفة التاريخ..... 46
- روح التربية..... 46
- الحضارات الأولى 47
- مقولات مأثورة في الوقت الراهن..... 47
- السنن النفسية لتطور الأمم..... 48
4 أهم أطروحاته..... 49
- جمعية الأنثروبولوجيا في باريس ومصطلح "العرق".... 49
- دراسته في الإنسان وهو منفردٌ وفي تطور المجتمعات.. 50
- "سيكولوجية الجماهير"..... 50
- الصالون الثقافي..... 50
- الجدل الدائر حول المادة والطاقة 51
- نظرية التسلسل الهرمي للحضارات..... 51

5 مختارات من كتاباته الفكرية والاجتماعية والإبداعية تبرز أسلوبه ورؤيته للعالم العربي..... 53
- من نقاط قوة الكتاب 56
- المنهج 57
- أسباب كتابته عن الحضارات..... 60
- دور الفوتوغرافية 61
- أثر الحضارة العربية على أوروبا 64
- مقارنة الفتوحات العربية بما أتى من بعدهم..... 69
- سلوكيات الحضارة العربية 70
- الأسرة..... 74
- الإسلام والعلم..... 74
- فن العمارة لدى العرب..... 75
- نبوغهم في علوم أخرى..... 76
- الحرية وحياة البادية..... 76
- انتشار الإسلام بالسيف أم بغيره؟..... 77
- سلوكيات الإسبان عند طرد العرب من الأندلس..... 79
- الحروب الصليبية 80
- احترامهم لآثار الأمم التي سبقتهم..... 81
- تأثير الحضارة العربية في العالم 81
- رده على بعض التهم الملصقة بالعرب..... 85
- المرأة في الإسلام..... 86
- احترام الديانات الأخرى..... 87

- الجزيرة العربية..... 88
- رأي الباحثين العرب حوله..... 90
- كتاب: حضارة العرب..... 90
- تمجيده للقرآن الكريم في أكثر من موضع 91
- عدل وسهولة الإسلام 91
- امتداحه للرسول محمد ﷺ 92
6 مختارات مما كتب عنه من قبل باحثين مختصين..... 95
سبب إهمال لوبون من قبل علماء الاجتماع المعاصرين. . 98
- سيغموند فرويد..... 101
- موسوليني..... 101
- روزفلت..... 103
- شارل ديغول 103
- روبرت ميشيلز..... 104
- أينشتاين..... 105
- شومبيتر..... 106
- هوركهايمر..... 106
- سيرج موسكوفتشي 108
- لماذا لم يلتحق بالجامعة للتدريس؟..... 111
خاتمة 113
المراجع..... 117
ملحق..... 123

عتبــة

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروع معرفي طموح، تبنته ونفذته مؤسستان ثقافيتان كبيرتان، هما "جائزة الملك فيصل" بالرياض، و"معهد العالم العربي" في باريس، ممثلاً في "كرسي المعهد". يهدف هذا المشروع إلى التعريف بمائة عالم وباحث، من العرب والفرنسيين، ساهموا في تقديم إحدى الثقافتين للأخرى. لقد كرس هؤلاء الباحثون والمثقفون، العرب والفرنسيون، جهودهم لتعزيز مختلف أشكال الحوار الجاد، والتفاعل الخلاق بين ضفتي المتوسط، خلال القرنين الماضيين. وبفضل منجزاتهم الاستثنائية استحقوا الاحتفاء بهم، والكتابة عنهم، من أجل تخليد ذكراهم، والتعريف بهم لدى الأجيال التالية؛ التي نأمل أن ينظروا إليهم باعتبارهم رموزًا مشعة، تلهم العقول، وتضيء مسالك المستقبل، لكل من يعي أن الثقافة بمكوناتها العلمية والفكرية والجمالية، هي الطريق الأمثل للتعارف والتعاون بين البشر.

اختيار ستين شخصية عربية، وأربعين شخصية فرنسية، جاء نتيجة لعمل مهني متصل، بذلته لجنة علمية مشتركة

على مدار أشهر. حرصت اللجنة أن تكون الأسماء المختارة ممثلة، قدر الممكن، لمختلف الفترات التاريخية، والتخصصات المعرفية، والتوجهات الفكرية والإبداعية. إننا ندرك تمامًا أن في كل اختيار مخاطرة. ولو كتبنا عن ألف شخصية وأكثر، فسيظل هناك أعلام يستحقون الحضور ضمن هذه السلسلة.

يتوجه هذا المشروع الثقافي إلى قارئ عام يقظ، قد يدفعه فضوله إلى المزيد من البحث المعمق في منجزات هؤلاء الوسطاء الثقافيين، الذين طالما استمتعنا بكتاباتهم، وأفدنا من أفكارهم الغنية المجددة.

إنها قناعة من المؤسستين بإضاءة مائة شمعة، تدشينًا لعمل مفتوح، نأمل أن يتممه آخرون من بعدنا، وهنا يحقق المشروع أهدافه الأكثر جمالاً ونبلاً.

خالص التقدير للمؤلفين، الذين آمنوا معنا بالفكرة، وساهموا في تحقيقها. والشكر الأوفر لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، رئيس هيئه الجائزة، والسيد جاك لانـغ، رئيس المعهـد، لدعمهمـا ومتابعتهما للمشـروع. والله الموفق.

عبد العزيز السبيل　　معجب الزهراني

مقدمة

قد يكون الطبيبُ والمؤرخُ الفرنسي (غوستاف لوبون) Gustave le Bon شخصيةً مثيرةً للجدل في بعض أطروحاته، بل في تعدد المجالات التي تناولها، لكنه كان أحد أكثر العقول الفكرية التي أثرَت المجتمع في حينه، وما زالت بعض أفكاره مرجعاً علمياً مهماً، وقد تميز بكونه:

- مفكراً عالمياً متعددَ الاختصاصات، ومؤلفاً للعديد من الكتب في المجالات الطبية والفكرية والسيكولوجية الاجتماعية والحضارات الإنسانية.
- متبنياً للمنهج الموضوعي في أطروحاته.
- تقديمه للحضارة العربية والإسلامية بطريقة منصفة.
- تنديده في أعماله "بأسطورة السلالة الآري"، محذراً من أهداف الاستعمار القومي.
- تنبؤه بكارثة الحرب العالمية الأولى[1].

(1) تنبأ غوستاف لوبون بأنَّ الحرب العالمية الأولى ستكون مميتة؛ لأنها ستكون حرباً للمجندين غير المدربين وليست للجنود النظاميين المهنيين. انظر كتابه "علم النفس الاشتراكي" (1898).

- تأثيره الفكري على العديد من القادة السياسيين المؤثرين في العالم بالرغم من توجهاتهم[1].

وبما أنَّ هذا العمل الذي بين يدينا يأتي ضمن سلسلة شخصيات كان لها تأثيرٌ في التواصل بين الثقافتين العربية والفرنكوفونية، ضمن مشروع جائزة الملك فيصل بالتعاون مع معهد العالم العربي في باريس بإطلاق مشروع "مائة كتاب وكتاب"، ويقدم العلماء والدارسين الفرنسيين الذين أسهموا في التواصل بين الثقافتين الفرنسية والعربية، فسوف نركز على جانب من أعماله عن الحضارة العربية في هذا السياق. وبالرجوع للماضي في الثقافة الإسلامية نجد على سبيل المثال بأنَّ شهرة أبي بكر الرازي بوصفه طبيباً طغت على شهرته بوصفه فيلسوفاً، فعلى حين أنه لقب "بجالينوس العرب"، فقد أنكر عليه المنكرون، في حياته كما في مماته، صفة الفيلسوف. هكذا كان العالمُ الفرنسي غوستاف لوبون شخصيةً مثيرةً للجدل، متعددَ المجالات، تبادل الكثير من الرسائل مع عدد من مفكري عصره، سواء

(1) أدت الأفكار الواردة في سيكولوجية الجماهير دوراً مهماً خصوصاً في بداية القرن العشرين، ولا تزال بعض أعماله الأكثر شهرة إلى اليوم ذات تأثير، بالرغم من مُضي مائة عام على نشرها، كما في كتاب "سيكولوجية الجماهير"، وسوف نورد في ثنايا الكتاب فقرة عن تأثيره.

المخالف لرأيه أم المؤيد. وكان لديه رؤية ضد رجال الدين، خصوصاً في الديانة المسيحية، وكان واحداً من مناهضي الاستعمار. اتهمه البعض من مفكري ومثقفي أوروبا بمحاباة العرب والمسلمين، وعزفوا عن متابعة أعماله، واللافت أنَّ غالبيتهم كانوا من المتعصبين ضد العرب[1].

الاستشراق:

شهد القرن التاسع عشر استيلاء المستعمرين الغربيين على مناطق شاسعة من العالم الإسلامي، بل إن استيلاء كل من إنجلترا على الهند، وفرنسا على الجزائر بشكل كامل كانا في نفس العام 1857م، وسبقتهم هولندا في الاستيلاء على إندونيسيا بوقت كبير. ونعتقد بأن العديد من المستشرقين كان هدفه اكتشاف مكنونات الشرق العلمية والحضارية وتحقيقها، وفي ذات الوقت بدون شك، فقد أفاد الاستعمار من التراث الاستشراقي، ولن نسترسل في هذا السياق كونه ليس موضوعنا هنا.

(1) اتهم من سار على نهج لوبون مثل البريطاني توماس أرنولد وكتابه «الدعوة إلى الإسلام» (1896) الذي بيّن فيه عظمة التسامح في الدين الإسلامي، مما حمل معظم المستشرقين المتعصبين، خصوصاً المبشرين منهم، على الطعن به واتهامه بمحاباة المسلمين.

لقد ارتبط الاستشراق في ذاكرتنا بالاستعمار، وعليه تجاهلنا القيمة العلمية لبعض علماء الغرب ودورهم في تحقيق التراث العربي والإسلامي ودراسته، وكما كان للحضارة الإسلامية إبان عظمتها حفظ التراث الإنساني القديم، ونقله وتطويره، كان الفضل في نظري لكثير من المستشرقين، خصوصاً أصحاب المنهج العلمي المنصف إبان فترة الانحطاط للحضارة العربية لاحقاً، في حماية الكثير منه من الضياع، بسبب قدراتهم المادية والعلمية والمنهجية.

ولا بدَّ من هذه الوقفة قبل الاسترسال بالتعريف بشخصية هذا الكتاب وأعماله ودوره فيما نقل عن الثقافة العربية والإسلامية. لم تَخلُ أوروبا من مؤرخين أبصروا ما للمسلمين من فضل في الحضارة الإنسانية على الحضارة الأوروبية؛ فألفوا كتباً ودراسات منصفة تشيد بفضل المسلمين الذي لا يمكن إنكاره.

وفي هذا السياق، تعددت القراءات من الكتَّاب العرب لأعمال المستشرقين بين مؤيد للمنصفين منهم، أمثال غوستاف لوبون والرافضين لهم جميعاً، انطلاقاً من مبدأ الشك في نواياهم. لقد تطرقت أغلب الكتب والدراسات العربية حول الاستشراق بسلبية كبيرة، ومرد ذلك عدم

القدرة على أخذ نصوص الأصل للتحقق من السياقات الدقيقة لما ورد لدى المستشرق هذا أو ذاك دون تكرار لما سبق، ونحن هنا لا ندافع عن الاستشراق بقدر ما نشير إلى جانب مهم بأنَّ عدداً من المستشرقين كان منصفاً وكتبوا بموضوعية، ونقلوا لنا معظم كنوز الحضارة العربية في فترة الانحطاط الكبير، خصوصاً القرن التاسع عشر (أمثال: غوستاف لوبون، زيجريد هونكه، وغيرهم)، ولعل من المفيد التركيز على الإيجابيات وتوظيفها بالشكل السليم. لا ننكر بأنَّ عدداً آخر من المستشرقين كتب عن الحضارة العربية مغموراً بالأحكام السلبية المسبقة، وقد كان من بين أبناء جلدتنا من جاراهم في ذلك، ونعتقد بأنَّ خير رد عليهم هو تجاهلهم وإبراز أعمال أولئك المنصفين منهم.

اعترف المنصفون من المستشرقين بأنَّ الحضارة الإسلامية كانت هي صاحبة الفضل في إرساء الحجر الأساس للحضارة الأوروبية الحديثة، بإسهاماتها العظيمة في جميع المجالات، ومنها الطب والكيمياء والرياضيات والفيزياء والفلك وغيرها.

نذكر هنا إلى جانب شخصية مؤلفنا " غوستاف لوبون"، بعضهم على سبيل المثال لا الحصر:

"توماس أرنولد Thomas Walker Arnold"، "سديو Sédillot"، "زيغريد هونكه Sigrid Hunke"، جورج سارتون George Sarton وغيرهم.

عندما كلفت بهذا العمل تساءلت في ظل المعطيات العالمية الحالية والمفهومات المطروحة من إرهاب وسياقاته[1]، ماذا يدرس المستشرقون الفرنسيون اليوم مقارنة بسابقيهم؟ ناهيك عما يطرحه غيرهم لدى الإنجلوساكسون كما في كتاب (هنتنجتون) الجديد (من نحن؟ تحديات الهوية الوطنية الأميركية)، أو في كتابه السابق (صدام الحضارات). للأسف، التوجه لدى معظم المستشرقين الآن في معظمه هو عن الإرهاب وصياغة مفهومات بسياقات تأزمية!! وبصورة أدق كان معظم المستشرقين القدماء يبنون أحكامهم على الشرق من خلال قراءة آثار هذا الشرق المعرفية والعلمية والأدبية[2] كما هو الحال مع غوستاف لوبون، بينما معظم

(1) كان لنا دراسة عن حرب المصطلحات ومفاهيمها، انظر: عولمة المفهوم ودور الترجمة: المصطلحات في الخطاب السياسي أنموذجاً. مجلة فيلولوجي، العدد XLVI يونية 2006م.

(2) أول مؤتمر للاستشراق في العالم عقد في باريس سنة 1873م، وخرجت هذه المدرسة عدداً من المستشرقين الذين عنوا بالتراث العربي والإسلامي، وقدموا دراسات مهمة. وعليه لا نعمم بسلبية جميع المستشرقين نحو الحضارة العربية والإسلامية. وبلا شك كان منهم خلاف ذلك. انظر محاضرة رينان عن:=

المستشرقين الجدد يستندون إلى معارف ثانوية يستقون جُلّها، إن لم تكن جميعها، من مصادر إعلامية تتسم بالتسطيح[1] والتعميم، ولعل هذا المشروع يعيد الأمور لنصابها السليم لإبراز السمات النيرة لدى الحضارتين العربية والفرنكوفونية، ومنطلقاً لمشاريع أخرى بين العرب وبقية الثقافات لتجسيد نقاط التلاقي من أجل الإنسانية.

القرن التاسع عشر:

لا شك بأنَّ لوبون كان أحد أهم مفكري أوروبا إبان القرن التاسع عشر، ولقد شهد انتصار العلم وأزمات الأنظمة السياسية وظهور تيارات جديدة كالاشتراكية، الخ. لم ينل حقه من أبناء جلدته أولاً ناهيك عن غيرهم. كيف لا وهو الذي أثَّرت أفكاره على مثقفين وقادة سياسيين بارزين تاركاً إرثاً علمياً عالمياً مهماً في عدة مجالاتٍ، ولا زالت بعضُ أفكاره مؤثرة حتى اليوم. وإذا كان قد حقق شهرة

= "الإسلاميّة والعلم" التي ألقيت في السوربون يوم 1883/03/29 إحدى أهم المحطات التي أبرز فيها المستشرق الفرنسي مواقفه السلبية- تجاه الإسلام، كان في فرنسا جمال الدين الأفغاني حينئذ (1838 - 1897) الذي رد عليه في صحيفة «Le Débat » في 18/5/1883.

(1) انظر: فخري صالح «كراهية الإسلام– كيف يصوّر الاستشراق الجديد العرب والمسلمين» (الدار العربية للعلوم- ناشرون)، 2016.

واسعة بكتابه "سيكولوجية الجماهير" حيث نحا جانب الدراسات الاجتماعية عليه، نعتقد فيما أورده عن نظم العرب السياسية والاجتماعية (انظر: حضارة العرب، في الباب الثالث الفصل الثالث ص 393) من العوامل التي قادته للكتابة والبحث بعمق في العلوم الاجتماعية لينجز فيها عدة كتب كان أبرزها كما أسلفنا "سيكلوجية الجماهير".

لقد ظهر غوستاف لوبون في فترة كان العالم العربي والإسلامي يعيشان فترة انحطاط، وندر ما تمَّ رصده عن أوضاعهم حينها، فكان عمله الكبير كتاب "حضارة العرب" تسجيلاً لفترة القرن التاسع عشر وما قبلها، ونشير هنا بأنَّ الدكتور لوبون في أعماله عن الحضارة العربية كان يورد توصيف الأشخاص لما ورد عنهم في السير، خصوصاً العربية منها (انظر قائمة مراجع كتابه "حضارة العرب"). وأمَّا الشواهد على الحضارة، فوقف عليها شخصياً ونقلته آلة تصويره بإبداعٍ كبير. لقد سار على مبدأ "فما نقش على الحجارة أفصح مما جاء في الكتب"[1]. وفي نظري أنّه وفق في معظم ما نقله، ولم يصب في بعضها وهي قليلة، وكانت معظم تحليلاته موضوعية بشكلٍ كبير. لقد كان من الملفت

(1) غوستاف لوبون، (ترجمة عادل زعيتر)، حضارة العرب، ص 205

للنظر في عمل لوبون، بل نقطة قوته، تسجيل كيف توالت الحضارة العربية، ورصد إنجازاتها العلمية وأثرها على العالم، وليس سرد قصص من التاريخ.

لقد اطلعت على معظم كتب الأقدمين عن الحضارة العربية مثل: ابن خلدون وابن حزم والمسعودي والطبري وابن هشام والهمداني وغيرهم، وجميعها تتحدث عن الفترة التي عاشتها، وبسرد تاريخي في مجمله، ولن تجد فيها - رغم قيمتها العلمية الكبيرة - من استشهادات وصور موثقة لمعالم الحضارة العربية مثل ما أورده لوبون في كتابه "حضارة العرب".

التواصل بين الثقافات:

ترجع أهميّة الاتصال والتواصل إلى عصور قديمة، حيث وَجَدَ الإنسان أن هُناك حاجة مُلحة لإيجاد وسائل تُتيح الاتصال بين الأشخاص، فبدأ التواصل من خلال الرسائل المكتوبة، ثُم تطوّرت وسائله إلى أن وصلت إلى ما هي عليه الآن، من مواقع للتواصل الاجتماعي وغيرها.

أما الثقافة[1] فهي نتاج صنع الإنسان أي إنها وليدة بيئته

(1) تعددت التعريفات لمصطلح الثقافة، ويمكن الرجوع على سبيل المثال لا الحصر إلى كل من E –talor، Kilpatrick

وتفاعل أفرادها، لذلك تختلف باختلاف البيئات، وقد يذهب مفهوم الثقافة أبعد من ذلك في ظل الثورة الرقمية وتحول العالم إلى قرية كونية.

إنّ التواصل عبر الثقافات شكل من أشكال التواصل الإنساني، وفي حالة التواصل بين ثقافتَين[1] مختلفتي اللّغة تُضافُ عواملُ أخرى تؤثّر في التواصل بين الثقافات سلباً أو إيجاباً؛ أهمُّها التباين اللغوي والثقافي والصور النمطية.

وقبل الختام لهذه المقدمة نقول: قد يكون هذا المشروع الذي يُعد هذا الكتاب جزءاً منه نوعاً مميزاً من الحوار الحضاري أو الثقافي.

أخيراً هذا العمل ليس دراسة، بل محاولة للتعريف بأحد أهمِّ المستشرقين الذين كان لهم بصمةٌ في الثقافتين الفرنكوفونية والعربية الإسلامية، فما الذي قدمه هذا العالم المستشرق للثقافتين؟

إننا سنسعى في هذا الكتاب الذي بين أيدينا للإجابة عن التساؤل السابق وغيره، من خلال التعريف بهذا العالم

(1) انظر: عماد عبد اللطيف، "البلاغة والتواصل عبر الثقافات"، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، 2012

المستشرق الفرنسي، وإبراز أعماله التي تركت بصمة إيجابية رائدة في الثقافتين الفرنكوفونية والعربية الإسلامية وبالله التوفيق.

"إذا كان العصر الذهبي في مكان ما ، فهو أمامنا وليس خلفنا"

غوستاف لوبون

1. نبذة عن غوستاف لوبون وتكوينه المعرفي[1] ،[2]

ولد غوستاف لوبون Gustav Le Bone في مقاطعة نوجون لوروترو (Nogent-le-Rotrou) بمنطقة النورماندي في فرنسا Eure-et-Loir, France في 7 مايو 1841م في عائلة بورجوازية صغيرة. وكان والده يشغل وظيفة محافظ الرهن العقاري. درس الثانوية في مدينة تور Tours، ثم درس في كلية طب باريس، حيث حصل على درجة دكتور، وفي عام 1866م ظهر أول أعماله الرئيسية "الموت الظاهر والدفن المبكر". توجه بعدها بسنوات عدة في مجال الطب إلى مجال الأنثروبولوجيا، وعكف على دراسات علم النفس.

وتعاون لوبون، من عام 1862 إلى 1869 مع العديد من

(1) https://www.denistouret.net/ideologues/Le_Bon.html

(2) http://www.korpa.fr/lebon/avantpropos.htm

الدوريات، حيث تظهر له دراسات حول وفيات الرضّع، وإدمان الكحول ، ودخان التبغ ، وعلاج الكوليرا، وعلاج الاختناق، وما إلى ذلك. هذه الأعمال أكسبته الحق في أن يُنتخب عضواً في جمعية الطب العملي (انتخب نائباً للرئيس في عام 1879 ورئيساً في عام 1880)، دون أن يتوقف عن العمل الإرشادي الطبي، وتميز بتنويع مجال أبحاثه، وأنشأ مختبراً في شقته بباريس، وتعلم الكيمياء، والفيزياء، والبصريات.

في الواقع، كان الطبيب غوستاف لوبون موسوعة ثقافية بتنوع اهتماماته، ووفرة نتاجه. تم تجنيد لوبون في الخدمة الصحية للجيش خلال حرب 1870-1871م، وشارك في معركة شامبني Champigny، خلال حصار العاصمة باريس، وقاد العديد من فرق إجلاء الجرحى، حيث منح على ذلك لقب فارس جوقة الشرف. هذا النشاط ألهمه تالياً مقالة بعنوان: "النظافة العملية للجندي والجرحى".

مثّل القمع الدموي الذي أعقب فك الحصار عن باريس لديه كرهًا عميقًا لجميع أشكال العنف، ووفر مشهد الغضب والحواجز الشعبية له مادةً علميةً لأكثر أعماله شهرة: "سيكولوجية الجماهير" (1895).

كتب الطبيب والمؤرّخ الفرنسي في عدد من المجالات العلمية، بدأها بعلم الطب، ثم في علم الفيزياء، فالآثار وعلم الأنثروبولوجيا، وانتهى بعلم الاجتماع.

اهتمَّ بعلم الحضارات بشكلٍ عامٍّ، وكان من أوائل المؤرخين الأوربيين الذين اعترفوا بوجود فضلٍ للحضارةِ الإسلامية على العالم الغربي. اهتمَّ بالطب النفسي، وخصوصًا السلوك الجماعي، مما مكّنه من إصدار العديد من الأبحاث في هذا المجال إلى أن كتب كتابه المهم "سيكولوجية الجماهير"، الذي حقق له سمعة علمية عالية، وكان الأسبق فيه، ولذا يُعدُّ لوبون مؤسس "علم نفسية الجماهير". أنجز ما يفوق عن 60 كتاباً[1] وبحثاً، وتناولت أعماله مجالات الطب والحضارة والتاريخ والآثار والمجتمع، ولقد امتدَّ حينئذٍ تأثيره الفكري أيضاً على السياسيين البارزين، مثل موسوليني وهتلر وتشرشل وروزفلت وديغول، وغيرهم.

(1) انظر ملحق الكتاب بقائمة أعمال غوستاف لوبون.

1.1. غوستاف لوبون وقرن الاضطرابات الحادة :

يعتبر القرن التاسع عشر في فرنسا فترة المتغيرات العميقة وعدم الاستقرار السياسي، حيث عاشت فرنسا حينئذ أربعة أنظمة متغيرة:

- الإمبراطورية.
- عودة الملكية.
- الجمهورية الثانية.
- الإمبراطورية الثانية.
- الجمهورية الثالثة.

ولمعرفة بيئة الحقبة التي عاش فيها لوبون، نعرض لجانب من واقع القرن التاسع عشر السياسي والمعرفي. في الواقع، برزَ غوستاف لوبون بأفكاره خلال الأحداث الكبرى إبان القرن التاسع عشر[1].

ولفهم شخصية غوستاف لوبن لابد من فهم البيئة التي نشأ فيها، خصوصاً الأحداث السياسية والمجتمعية. عليه سنلقي الضوء بشكل مختصر على تلك الحقبة، فبالرغم من أن الثورة الفرنسية انتهت في عام 1789م، إلاّ أن المتمردين

(1) https://french.hku.hk/starters/histoire/lang2002_histoire_19e.htm

الحالمين بعودة النظام القديم ثاروا من جديد عام 1799م. في الوقت نفسه، غيرت الاضطرابات العلمية والتقنية المجتمع الفرنسي، حيث ظهرت طبقة جديدة أكثر حركة وأقل محافظة من الفلاحين، وهي طبقة البروليتاريا والعمال، واستفادت من ضعف نفوذ النبلاء ورجال الدين في شؤون البلاد، وبالتالي أدى ذلك إلى تحفيز التنمية الصناعية. إلاّ أنه بعد نهاية الطموحات النابليونية، حدثت طفرات بطيئة لهذه التنمية، وذلك بسبب الأزمات والتمزقات التي تعود بشكل مفاجئ كل عشرين سنة في القرن نفسه.

بالإضافة إلى ذلك، فإن النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد تقدماً مذهلاً للعلم في جميع المجالات، وخاصة تطبيقاته المتعددة للنشاط الصناعي، وصاحبه ظهور الفكر العقلاني تماشياً مع فلاسفة عصر التنوير، الذين دافعوا عن تفوق العقل على الخرافات، مثل أوغست كونت (1798-1857). من ناحية أخرى، يستنبط منظرون آخرون هذه الروح الجديدة نحو النظريات العنصرية المستوحاة من نظرية التطور الداروينية. وتميّز الإنتاج الأدبي أيضًا بهذه الروح الجديدة، كما في أعمال بلزاك وفلوبير، وبشكل أكبر مع كتابات موباسان، والأخوين غونكور، وإميل زولا.

هكذا عاش لوبون كما ورد في ظل أحداث سياسية وعلمية كبرى، وفي التالي بعض الأحداث الكبيرة التي حدثت في القرن التاسع عشر:

- حروب نابليون في أوروبا.
- حرب بروسيا بسمارك لفرنسا، واعتقال نابليون الثالث في 1870م، ومحاصرة باريس من قبل القوات البروسية.
- عام 1887م بدأ بناء هيكل حديد غريب للاحتفال بالقدرة الصناعية لفرنسا. وبعد عامين، اكتمل هذا الهيكل المسمى حالياً برج إيفل.
- بلوغ الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية ذروتها.

عاصر أيضاً الاستكشافات العلمية العظيمة في بداية حياته المهنية إبان القرن التاسع عشر، على سبيل المثال[1]:

- البطارية الكهربائية، عن طريق الساندرو فولتا، 1800م.
- التصوير، 1826م.

(1)https://fr.vikidia.org/wiki/Grandes_d%C3%A9couvertes_et_inventions_scientifiques

- البرقية، بواسطة سامؤيل مورس، 1837م.
- الهاتف، 1860م.
- الديناميت، ومكتشفه ألفريد نوبل، 1866م.
- المصباح الكهربائي، بواسطة توماس أديسون، 1879م.

وكان إلى جانب حبه للسفر والتجوال، خصوصاً في القارات القديمة (أوروبا، أفريقيا وآسيا)، أن جسَّد شخصية المستكشف الذي يوظف السفر في خدمة العلم.

وبالرغم من تعدد موهبته وغزارة إنتاجه المعرفي، إلاّ أن الجامعة[1] رفضت انضمامه للعمل بها، لكنه استطاع أن يؤثر على الساحة الثقافية ويصدر كتبه بالتوالي من خلال مسيرته الفكرية وتعمقه في علوم الفيزياء والأنثروبولوجيا وعلم النفس، الخ.

نشر عدداً من الكتب في مختلف المجالات حتى بلور نظريته "سيكولوجية الجماهير" متأثراً بالفيلسوف والمؤرخ هيبولت تين Hippolyte Adolphe Taine .

(1) جامعة باريس 2 Paris-II-Assas

شارك في مجلة العلوم[1] La Revue scientifique، وتعاون مع مجلة الحدث l'Événement [2]، وله مقالات محددة في مجلتي الجغرافيا ومجلة الأنثروبولوجيا.

أنشأ مكتبة الفلسفة العلمية Flammarion[3] في عام 1902 م[4]، حيث تنشر أكثر من 220 عنواناً، ونشر أكثر من مليوني نسخة.

تُرجم أكثر من أربعين كتابًا من أعماله إلى 18 لغة، ولقد تُرجمت إلى العربية أبرز كتبه[5] (انظر قائمة المراجع والملحق).

توقع بعض الأحداث العالمية مثل: وقوع الحرب العالمية الأولى، وانتصار الديكتاتوريات في أوروبا،

---

(1) هي مجلة قديمة علمية للعلوم العلمية تأسست في عام 1863

(2) الحدث ، صحيفة يومية عريقة فرنسية تأسست في باريس في 30 يوليو 1848 من قبل فيكتور هوغو .Victor Hugo واستمرت فقط حتى سبتمبر 1851.

(3) دار نشر تأسست عام 1875 عن طريق أرنست فلاماريون Ernest Flammarion، انظر الرابط:

https://editions.flammarion.com/Qui-sommes-nous

(4) https://www.cairn.info/revue-d-histoire-moderne-et-contemporaine-2010-4-page-185.htm

(5) ترجم معظم كتبه عادل زعيتر، وترجم كتاب "سيكولوجية الجماهير " هشام صالح 1991م.

وصراعات الشرق، وأمريكا اللاتينية، وإيرلندا، وانتشار الاشتراكية، وبزوغ حضارة عالمية لأفريقيا وعودة الإسلام، وسيطرة الحركة الوهابية في الجزيرة العربية في إشارة لقيام الدولة السعودية الحالية[1].

هكذا ولد وعاش غوستاف لوبون خلال قرن من الاضطرابات الحادة والاكتشافات العلمية الكبرى، وحتماً ساهم ذلك في تكوين شخصيته. قضى سنوات طويلة من حياته في مارن لا كوكويت MARNES-LA-COQUETTE، وتوفي في باريس عن عمر يناهز التسعين من عمره في 15 ديسمبر عام 1931م، ولقد اُهتمَّ بجنازته رسمياً، حيث أرسل رئيس الوزارة في الجمهورية الفرنسية الثالثة أريستيد بريان Aristide Briand وزير الشؤون الخارجية عضواً في مجلس وزرائه لاستقبال جثمانه.

(1) Catherine Rouvier, Les idées politiques de Gustave Le Bon, PUF, Paris, 1986, p.44

2 تخصصه وأبرز تجاربه العملية والعلمية :

1.2 **تخصصه** : كان مفكراً عالمياً متعددَ الاختصاصات، ومؤلفاً للعديد من الكتب التي يتناول فيها الاضطراب السلوكي، وعلم النفس الجماعي، وله إنتاج علمي كبير في علمي الآثار والأنثروبولوجيا.

غوستاف لوبون هو المعاصر للاستكشافات العلمية العظيمة، وهو المروج الرئيس لتلك الاستكشافات على المدى الطويل. نلحظ بناء على المراجع التي تناولت لوبون. تنوع الموضوعات التي غطّاها طوال حياته المهنية: إدارة الخدمات الطبية، الإثنوجرافي، والمصور، الأنثروبولوجيا، علم الإجرام، علم النفس، التعليم، الفيزيائي والفيلسوف.

نشر في عام 1881 كتاب "الانسان والمجتمع" بمجموع ضخم في مجلدين من 1000 صفحة تقريبًا، يعيدان تاريخ الحياة من أصل الكون إلى زمن المؤلف. يعتبر نفسه وريث التنوير. يؤمن بتقدم الحضارة، فيقول: (الحضارة هي شعلة ينمو نورها من عمر إلى عمر، وأن معظم الشعوب المتنوعة قد مرت بدورها)، وفي مدى كمال الأنواع البشرية (إذا كان

العصر الذهبي في مكان ما، فهو أمامنا وليس خلفنا). ويقرر أن يكرس عدة مجلدات لتاريخ الحضارات العظيمة، وفي مقدمتها الحضارة العربية، حينئذ سافر إلى شمال أفريقيا (المغرب، الجزائر، تونس) من 1882 إلى 1884م، ثم رحل إلى الشرق الأوسط (إثيوبيا، لبنان، مصر، فلسطين، سوريا، تركيا والعراق) وكذلك، أصفهان وسمرقند.

لقد سمحت له أسفاره في الشرق الأوسط بالمغامرة والاتصال بشعوبها بمنأى عن الحضارة الغربية لاكتشاف ثراء ثقافتهم. "لا يوجد سوى الرحلات التي يمكن أن تعلمنا للهروب من نير الآراء الجاهزة، وهو إرث ثقيل من التقاليد والأفكار المسبقة في الماضي".

كان لوبون مهتماً كثيراً بالحضارات العظيمة التي لا زالت مهيمنة، مثل الحضارة العربية؛ لذلك درس الظواهر الاجتماعية والتاريخية كما لو كانت ظواهر مادية، مما مكّنه من تفسير انحطاط بعض الحضارات وصعود أخرى. فهم نهوض الاشتراكية وانتقد الرأسمالية والإثراء غير الأخلاقي، كما أعرب قلمه الحاد بكفاءة هائلة عن صراع الحضارات الذي أثاره المشروع الاستعماري.

وسوف نعرض لبعض توجهاته وفقاً للترتيب الزمني:

1.1.2 **الطب** : تخصص في البدء في الطب، وفي مجال البحث الطبي حتى عام 1880 تقريباً، وكان له مساهمات طبية عدة، نذكر منها على سبيل المثال: كان له دورٌ بارزٌ مع طوارئ السين في الحالات الإسعافية إبان حرب 1870-1871. اهتمَّ في البدء بالأمراض التي تصيب المجتمع كما في حالة الملاريا في برين Brenne، وكتب عدة مؤلفات طبية، منها كتيب صغير حول "علم التشريح وعلم الأنسجة" عام 1875م، حيث تم تدريسه حينئذ في كلية الطب لعدة استخدامات علمية، ومنها تطوير مقياس للرأس بحجم الجيب لاستخدامه من قبل عالِم الانثروبولوجيا الذي يرغب في قياس جماجم الأفراد أو المجموعات التي تمت مواجهتها في هذا المجال، ومساهماته في استخدام التصوير الفوتوغرافي (الذي كان رائدًا) في قياس الآثار عن بُعد.. وأيضاً كتاب الحياة "La Vie"، تناول فيه علم وظائف الأعضاء البشرية المطبقة على النظافة والطب والإنسان والمجتمعات، أصولها وتاريخها، وبحث عن أسباب تصرفات البشر.

2.1.2 **مؤرخ للحضارات الكبرى** : كان أيضاً محباً للسفر في بداية حياته المهنية. قام بعدة رحلات في أوروبا

وأفريقيا وآسيا وإلى جانب كونه سائحًا، فقد جسد شخصية المستكشف الذي يضع السفر في خدمة العلم. كان عضواً في جمعية الجغرافيا، وجمعية الأنثروبولوجيا. كل ذلك مكنه من إنتاج أعمال إبداعية عن الحضارات العالمية الكبرى ومنها:

- **رحلته الأنثروبولوجيا في جبال تاترا عام 1881م**: اتسمت بالانطباعات الشخصية على الرغم من بريق عنوانه العلمي.
- **الهند**: تمَّ تكليفه رسميًا في رحلته إلى الهند من قبل وزارة التعليم في عام 1884م، وأعدَّ حول ذلك أربعة مجلدات، امتلأت بالصور الكثيرة والمبتكرة بشكلٍ خاصٍّ[1].
- **مناطق أخرى**: قام برحلات لمناطق أخرى، كلّلها بكتاب عن كلِّ رحلة ومنها كتابه العظيم "حضارة العرب" ولنا عودة حول ذلك.

---

(1) المواد الخام من أعماله المنشورة على نطاق واسع، مثل الحضارة العربية أو الحضارات الهندية، تستخدم المواد التي جمعها المستكشف أيضاً في المنشورات المتطورة التي تهدف إلى تجديد الأساليب المستخدمة من قبل العلوم الأكاديمية، وهذا ما ورد في تقرير وزارة التعليم حينئذ، انظر:
https://www.cairn.info/revue-mil-neuf-cent-2010-1-page-101.htm#no16

3.1.2 مشاركاته العلمية وفي الحياة الفكرية الفرنسية :

يُعرف عن غوستاف لوبون بأنه عمل لأول مرة مراسلاً لعدة مجلات. شارك في المجلة العلمية La Revue scientifique ، وتعاون مع مجلة الحدث l'Événement، وله مقالات محددة في مجلتي الجغرافيا والأنثروبولوجيا.

أنشأ لوبون في عام 1902م مجموعة بعنوان "مكتبة الفلسفة العلمية"، تناولت في الأساس موضوعات في مجالات الفيزياء وعلوم الحياة والفلسفة والتاريخ، واستمرت حتى وفاته في عام 1931. نشرت 221 عنوانًا بمتوسط عدد نسخ بلغ 8400 نسخة، بالإضافة إلى عمله الخاص.

وفي الحياة الفكرية الفرنسية عقد لقاءات علمية من خلال اجتماعات منتظمة في عشاء شهري بدءاً من عام 1892م، والذي حولها إلى غداء كل أربعاء بدءاً من عام 1902م، كان يحضره مزيج من الشخصيات المختلفة (السياسيون، الفنانون، الأكاديميون وكبار المسؤولين والضباط)، وبعض الاجتماعات يحضرها أسماء أرستقراطية فرنسية أو أجنبية، وأحياناً تحضر بعض الزوجات. واستمرت هذه الاجتماعات حتى وفاته[1].

(1) استمر في تنظيم الغداء من بعد وفاته وللعشرين سنة التالية بول قوتييه Paul Gaultier، انظر :

Marpeau Benoît. Les stratégies de Gustave Le Bon. In: Mil neuf cent, n°9, 1991. Les pensées réactionnaires. pp. 115-128

انظر أيضاً لاحقاً فقرة الصالون الثقافي.

4.1.2 علم الاجتماع: تحول نحو دراسة الإنسان والمجتمعات من وجهة نظر أنثروبولوجيا أساسية، وصولاً إلى وضع تصنيف علمي للأجناس البشرية من خلال تحليل الاختلافات في حجم وشكل الجمجمة. وفي أهمِّ أعماله: "سيكولوجية الجماهير"، يركز غوستاف لوبون على الأسباب الجماعية؛ فيصف عمل الأفراد ضمن تشكلهم في مجموعة ما أثناء مناصرتهم لحدث كبير أو دعمهم لأحداث تاريخية كبيرة، ويحدد المبادئ في هذا الكتاب التي ستشكل أساس الانضباط العلمي الجديد: علم النفس الاجتماعي.

إنَّ مفاتيح تحليل المجتمعات والحضارات التي قدمها لوبون بأسلوبٍ بسيطٍ أكسبته نجاحًا يُحسد عليه، بالرغم من وجود مفكرين كبار معاصرين له، مثل مؤسس علم الاجتماع الحديث دوركهايم Durkheim (1858–1917).

في الواقع، غوستاف لوبون (1841–1931) هو واحد من أكثر الكتّاب الذين أُهملوا ظلماً في علم الاجتماع الحديث[1]. ونعتقد أن سبب ذلك هو منهجيته المنصفة في

(1) https://www.institutcoppet.org/psychologie-du-socialisme-gustave-le-bon-1898/

تقديمه لأفكاره خصوصاً عن الحضارة العربية، فضلاً عن رأيه عن اليهود مما جعل البعض يقومون بتقييم سلبي واضح نحوه من خلال ملاحظة المحتوى العنصري (المعادي للسامية)، وهو ما أشار إليه بعض الباحثين مثل Yvon J. Thiec [1]

انتقد غوستاف لوبون جميع أشكال الهندسة الاجتماعية والثورة. ورفض رفضاً قاطعاً فكرة أنَّ الطبيعة البشرية يمكن تعديلها من خلال العمل على البيئة الاجتماعية. احتقر السياسة الجماهيرية والديمقراطية والاشتراكية العلمية والتنظيم المتفشي. ونتيجة لذلك، لا يمكن التوفيق بين أفكاره بسهولة وبين التقاليد الدينية، أو المحافظة، أو الاشتراكية، أو الليبرالية التقدمية. باختصار كان لوبون لا ينتمي إلى أيٍّ مدرسة فكرية.

علاوة على ذلك، فإنَّ كتاباته في علم النفس الجماعي لا تمثل سوى جزء من عمله الإجمالي، الذي يتناول الطب، والتصوير الفوتوغرافي، والإثنولوجيا، والفيزياء، إلخ.

(1) Yvon J. Thiec,"Gustave Le Bon, prophète de l'irrationalisme de masse", Revue française de sociologie, Vol. 22, No. 3, Sociologies Françaises au Tournant du Siècle: Les concurrents du groupe durkheimen (Jul. - Sep., 1981), pp. 409-428

2.2 أبرز تجاربه العملية والعلمية :

لا يزال اسم غوستاف مؤلف علم نفس الجماهير مرتبطًا بتأسيس علم النفس الجماعي في مطلع القرن التاسع عشر، وهو يُعدُّ أحد مؤسسي علم النفس الاجتماعي: من كتبه الأولى، لا سيما "الحياة " La Vie، الذي يتحدث عن علم وظائف الأعضاء البشرية المطبقة على النظافة والطب، الإنسان والمجتمعات، أصولها وتاريخها. بحث غوستاف لوبون عن أسباب تصرفات البشر من خلال علم وظائف الأعضاء البشرية المطبقة على النظافة والطب والمجتمعات، أصولها وتاريخها، وضمَّن ذلك في كتابه: (الحياة "La Vie" عام 1874م)، ويحددها في الأسباب: البيولوجية، العاطفية، المنطقية، الجماعية، والصوفية. ويتطرقُ إلى كيف تَولَّدت الأسُر والمجتمعات والصناعات والفنون والنُّظم والمعتقدات؟ وكيف تحولت هذه العناصر بتوالي الأجيال. هذا التحليلُ لعلم النفس البشري سيمكنه من تفسير الأحداث التاريخية والحقائق المختلفة التي كانت حتى ذلك الحين غير منطقية وغير مفهومة.

عندها يشير غوستاف لوبون بأنه:[1] "*وإننا، بعد أن*

(1) نشيرُ هنا أنني قد اطلعت على الأعمال لغوستاف لو بون المنقولة إلى العربية، وكان جلها من ترجمة عادل زعيتر، وكتاب سيكولوجية الجماهير ترجمة هشام صالح، ولرصانة الترجمة لديهما، فقد اعتمدت ونقلت الاستشهادات اللازمة من ترجمتهما وفي حالة النصوص غير المترجمة توليت ترجمتها.

بحثنا في الإنسان وهو منفردٌ وفي تطورِ المجتمعات، نرى أن نطبقَ قواعدنا التي بسطناها هنالك على الحضارات العظيمة إكمالًا لبرنامجنا وبالعرب بدأت، وسبب ذلك: أنَّ حضارتهم من الحضارات التي اطَّلعتُ عليها في رِحلاتي الكثيرة أحسنَ مما اطلعت على غيرها من الحضارات التي كَمُل دورها، وتجلى فيها مختلف العوامل التي أوضحنا سرَّها في ذلك الكتاب، وهي من الحضارات التي نرى الاطلاعَ على تاريخها مفيدًا إلى الغاية وهو أقلُّ ما عرفه الناس"، (حضارة العرب، ص1).

استُخدِم عمله في علم نفس الجماهير في النصف الأول من القرن العشرين على يد باحثين في علم الاجتماع، مثل هادلي كانتريل Hadly Cantril، وهربرت بلومر Herbert Blumer. وكان له حضور ولو جزئي في علوم أخرى مثل الفيزياء، وسوف نتطرق لذلك في موضعٍ آخر من هذا الكتاب (انظر فقرة: أهم أطروحاته).

3 عرض لعينة من كتبه

اتسم هذا العالم بالموسوعية، حيث كتب في مجالات علمية عدة (طبي، فيزيائي، أنثروبولوجي، آثار وعلم اجتماع)، وقد زادت كتبه عن الخمسين كتاباً، فضلاً عن البحوث والمقالات ونورد هنا أبرز كتبه:

- **كتابه "حضارة العرب" 1884م[1]:**

ألف عام 1884م كتاب «حضارة العرب La Civilisation des Arabes, 1884». وفيه بيَّن عناصر الحضارة العربية وتأثيرها في العالم، باحثاً في أسبابِ عظمتها وانحطاطها، وقدَّمها للعالم بشكلٍ موضوعي ومنصف.

يتحدث لوبون في الكتاب عن جزيرة العرب، ثم يتناول جذور نشأتهم وأعراقهم وأحوالهم قبل ظهور النبي محمد ﷺ، ومصادر قوتهم وتأثير القرآن عليهم. ثم ينتقل للحديث عن دولتهم في سورية وبغداد وبلاد فارس والهند ومصر وإفريقيا الشمالية وإسبانيا وصقلية وإيطاليا وفرنسا. ويعرض بعد ذلك للحروب الصليبية. يتحدث أيضاً عن جوانب

(1) أعاد طباعته عام 1969 -بعد مرور 85 سنة- الشركة الوطنية للطباعة والتوزيع في الجزائر (494 صفحة) وقام بترجمته عادل زعيتر 1960م أي بعد مرور 76 سنة عن صدوره الأول.

ثقافية أخرى، مثل: طبائع العرب ونظمهم، وعرب المدن وعاداتهم، والمرأة في الشرق، والدين والأخلاق. كما يذكر علوم العرب، كاللغة والفلسفة والآداب والتاريخ والرياضيات وعلم الفلك والعلوم الجغرافية والفيزياء والعلوم الطبيعية والطبية والرسم والحفر والفنون الصناعية وفن العمارة. أيضاً يتحدث عن تجارة العرب، وصلاتهم بمختلف الشعوب، وتأثيرهم في الشرق والغرب وتأثير الأوروبيين فيهم.

سوف يكون لنا عودة مفصلة حول إسهاماته عن الحضارة العربية والإسلامية في فقرة "أبرز تجاربه العلمية".

- **كتاب "سيكولوجية الجماهير" (Psychologie des Foules) 1895م**[1] : حقق نجاحًا كبيرًا مع كتابه)، ما منحه سمعة جيدة في الأوساط العلمية، وصنف هذا العمل من الكتب العشرين التي غيرت العالم[2].

- **كتاب "تطور المواد"** (L'Évolution de la Matière) 1905م: ألف هذا الكتاب ليسهم في الجدلِ الدائر حول

(1) قررت جامعة باريس Paris-II-Assas 2 اعتماده كمرجع في برامجها، وهي التي سبق أن رفضت تعيين كاتبه أستاذاً لديها.

(2) في عام 2010، كان كتاب " سيكولوجية الجماهير" جزءاً من سلسلة الكتب العشرين التي غيرت العالم ونشرتها بالاشتراك دار نشر فلاماريون Éditions Flammarion وجريدة لوموند Le journal Le Monde

المادة والطاقة، الذي حظي بشعبية كبيرة في فرنسا.

ترجم عادل زعيتر[1] إضافة لكتاب "حضارة العرب" إلى العربية، كتبه التالية :

- **روح الثورات والثورة الفرنسية.**

La Révolution Française et la Psychologie des Révolutions, 1912

تضمَّن الحديث عن روح الثورات عامة، ودور الحكومات في الثورات والأمة، وتقلبات البشر النفسية الدينية والنفسية اليعقوبية والنفسية الثورية والنفسية المجرمة وروح الجماعات الثورية. ويتطرقُ أيضاً عن أنواع الثورات وتقسيماتها الدينية والسياسية والعلمية، ويختم كتابه بالحديث عن الثورة الفرنسية وآراء المؤرخين عنها.

---

(1) عادل زعيتر كان من أعظم المترجمين العرب، ويستحق أن يأخذ مكانه الطبيعي من الدراسة، والبحث خصوصاً منهجيته وأسلوبه الخاص في الترجمة، إلى جانب الإرث الذي خلفه، فقد ترجم ما يفوق 30 كتاباً من أمهات الكتب، ومنها معظم كتب غوستاف لوبون، وكتب لجان جاك روسو، سيديو وفولتير وغيرهم.
ترجم الكتب التالية: حضارة العرب 1945، روح الثورات والثورة الفرنسية 1946، روح الجماعات 1950، السنن النفسية لتطور الأمم 1950، روح التربية 1949، روح السياسة 1947، فلسفة التاريخ 1954، اليهود في تاريخ الحضارات 1945، حياة الحقائق 1949، الآراء والمعتقدات 1946، حضارة الهند 1948، روح الاشتراكية 1948.

- **روح السياسة**

- La Psychologie politique et la défense sociale 1910

يتحدثُ عن الروح السياسية للجماعات كونها قائدة معاركها في كافّة الميادين الإنسانية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية، ومدى استبداد الأنظمة القمعية، ورفض التيارات الاشتراكية الأوروبية، آنذاك، لاحتكار الحركات الرأسمالية الحُكم. يتطرق بعد ذلك إلى النتائج المترتبة على تطبيق مناهج التربية الأوروبية على الشعوب المتأخرة، والنَّهج الاستعماري لدول أوروبا التي تستبيح مقدرات الشعوب بشرعيةِ الوهم الذي تسميه الحرية، موضحًا عددًا من جرائم القتل السياسي، وصور التعصب والاضطهاد الديني.

- **اليهود في تاريخ الحضارات**

- Rôle des juifs dans la civilisation

تحدثَ عن قيام الدول ونشأة القوميات وأثرها على الجماعات اليهودية في أوروبا؛ الذين عاشوا منعزلين في «الجيتو اليهودي». وساد حينها حالةٌ من الكُرْه الشديد لليهود؛ وأورد رأي بعض المفكرين مثل «ماكس فيبر» و«هيجل»، الذي اعتبرهم الأول هم أصل الشرور، والثاني

بأنَّ شعائرهم بدائيةٌ وليست عقلانية. وقد سار «غوستاف لوبون» على نهج مفكّري أوروبا في موقفهم من اليهود أثناء تلك الحقبة، وصاغ كتابه من هذا المنطلق، ووصفهم بأبشع الصفات، نافيًا أيَّ دورٍ لهم في نشأة الحضارات القديمة.

- **حياة الحقائق** La Vie des vérités (1914)

"حياة الحقائق" دراسةُ أسس المعتقدات التي تتألّف من عناصر دينية وعاطفية، وما يشوب أفرادها من تحولات حينما تصبح جمعية، وتحدث عن: - الأديان القديمة أو المركبة كالمسيحية؛ وانتشارها، وعن الأخلاق باعتبارها العنصر الرئيس في تكوين المعتقدات الدينية، وفي الحياة العقلية باعتبارها تشكلُ جذور العلم، من خلال التفكير الفلسفي.

يعرض فيه لنظريته في فلسفة المعرفة ويقول بأنَّ الحقائق ليست مطلقة وإنما لها تاريخ محدد وعمرها قد لا يتجاوز عمر الزهور، أو قد يتجاوز القرون. لها لحظة ولادة ونمو وازدهار فشيخوخة فموت.

- **الآراء والعقائد** Les Opinions et les croyances (1911)

يتناول علاقة المرءِ بالمعتقد والرأي الذي يؤمن به من خلال إثارته أسئلة تتكشف مع محاولات الإجابة عليها؛

كما يتطرقُ إلى أنواع الغرائز وما يحرِّكنا ناحية معتقداتنا وآرائنا، وأسباب التصادم والتنازع بينها داخل المجتمعات، وآليات التوفيق أيضًا. والخصوصيَّة من فردٍ لآخر، لينتقل إلى شرح آليات انتقال الرأي وانتشاره، والوسائل المستخدمة في الترويج للآراء والمعتقدات في المجتمعات، ثم يقدِّم مباحث تجريبية في تكوين المعتقدات وما ينشأ عنها من حوادث غير شعورية.

- **حضارة الهند** Les Civilisations de l'Inde, (1893)

يقدمٌ عرضًا تاريخيًّا شاملًا بالتحليل والنقد لتطورات النظم الدينية والاجتماعية في الهند وعوامل هذه التطورات، والحوادث التاريخية الطبيعية، ويعرض صوراً لبعض آثار تلك البلاد التي شكلت منبتًا للكثير من المعتقدات والديانات.

بالإضافة إلى كتبٍ أخرى لم تترجم إلى العربية –حسب علمي- لا يتسع المجال لذكرها ومنها:

- **روح الاشتراكية** Psychologie du socialism, (1898)

في كتابه "علم نفس الاشتراكية"، يظهر أنَّ مجموعةَ التطلعات والمعتقدات والأفكار، التي تجمعها الاشتراكية، تشكل دوافع لعمل تأثير هائل مدمر. وهو يصنف الاشتراكية

بين المعتقدات الدينية والملاحظات التي يمتلكها لديه طابع عدم دقة العقائد التي لا تسود بعد؛ ولكن عندما يسعى المرءُ، يكتب أسباب نجاحه.

- **فلسفة التاريخ**.

- Bases scientifiques d'une philosophie de l'histoire. (1931)

أساس علمي لفلسفة التاريخ. يوجد ضمن كتاب مصور يحتوي على:

1- ميداليات تعكس مشاعر العصر. 2- أدوات المؤلف لقياس اختلافات الشخصيات البيولوجية المقابلة لتغيرات الشخصيات العقلية. 3 - تركيبات معمارية تبين تأثير الأجناس الأجنبية. وهو من أعمال لوبون التي لم يُعَد إصداره. ولقد جمع بواسطة مكتبة الفلسفة العلمية.

- **روح التربية** Psychologie de l'éducation,1902

طُبع هذا الكتاب بعدة لغات مرات عديدة. ومع ذلك، بقي تأثيره على الأكاديميين ضعيفًا جدًا. إلَّا أنَّ الأساتذة الذين يشرفون على المناهج الدراسية اطلعوا على صرامة تعليم الموضوعات والأساليب التي تخدم تعليمهم الخاص لبعض التجارب العالمية.

خصص عدة فصول لدراسة أساليب التعليم يتبناها المعلمون في الولايات المتحدة الأمريكية، الذي يصل فيها التعليم إلى أعلى مستويات من الكمال. أوضح في عرضه أيضاً عمق الهوة التي تفصل مفهومات التعليم والأفكار لديهم عما هو عليه في فرنسا.

- **الحضارات الأولى (1889)**

يستعرض عـــدة حضـــارات قديمة، مثل الفينيقية والآشورية والمصرية، وكيف بنى الإنسان القديم حضارته، إلخ...

- **مقولات مأثورة في الوقت الراهن**[1]

Aphorismes du Temps Présent

يشتمل الكتاب على بعض الأفكار المثورة في صورة قضايا جامعة؛ لأن الأفكار الموجزة هي الطريقة المُثلى التي يستعين بها العقل في تناول الحقائق المركبة. وقد تناول الكاتب القضايا الذاتية، والأخلاقية، والسياسية، والاجتماعية، والقومية؛ باعتبار أنَّ هذه القضايا هي الأكثر مصيرية في حياة الأمم، واستطاع أن

(1) تُرجم هذا الكتاب عن طريق أحمد زغلول بعنوان جوامع الكلم، عن مؤسسة هندوي 2014، ولقد رأيت أن ترجمته بـ "مقولات مأثورة في الوقت الراهن"، أقرب لمدلول العنوان الأصل ومحتوى الكتاب.

يختزلها في صورة عباراتٍ موجزة متقنة.

- وفي كتابه **السنن النفسية لتطور الأمم** يبحث غوستاف لوبون شروط الحضارة من زاوية الفرد، ومدى تأثير العوامل المختلفة، مثل التراث أو النظم السياسية أو الأخلاقيات على تطورها.

وفي بداية عام 1889، نشر كتاب الفوتوغرافية والصور الفوتوغرافية في رحلاته. كان لوبون الموهوب وصانع الألوان المائية دائمًا بطل التصوير الفوتوغرافي. في العام نفسه، نشر أيضاً كتاب الحضارات الأولى، وقد كرسه للحضارات المصرية، الكلدية - الآشورية، اليهودية، الفارسية والفينيقية. في عام 1892، نشر كتاب مهم عن ركوب الخيل ومبادئه. هذا الكتاب، الموضح بـ 57 نقشـــاً و178 صورة، يبقى بعد أكثر من قرن من نشره كلاسيكيًا لتعليم ركوب الخيل في مدارس سلاح الفرسان.

وحيث إنَّ المجال لا يسمح باستعراض جميع أعماله فسنورد لاحقاً أعمال غوستاف لوبون وفق الترتيب الزمني في ملحق بنهاية الكتاب (انظر الملحق).

4 أهم أطروحاته

سنورد هنا أهم أطروحاته لكلِّ مجال خاضه :

- **جمعية الأنثروبولوجيا في باريس ومصطلح "العرق"** : قام في عام 1879م بإدخال مشاركة رائعة في جمعية الأنثروبولوجيا في باريس ، والتي منحته في العام التالي جائزة غودار[1] Prix Godard لأطروحته "الأبحاث التشريحية والرياضية على قوانين الاختلاف في حجم الدماغ وعلاقتها بالذكاء". لكنه استقال منها في عام 1888م، مبرراً ذلك بأنَّ هذا المجتمع لم يكن مفتوحًا لمناهجها النفسية-الاجتماعية المبتكرة.

يرى بأنه لا توجد أعراق نقية في البلدان المتحضرة، ويفهم مصطلح "العرق"، مثل Taine أو Renan، كمرادف لـ"people"، أي، هذا هو "*مجموع الرجال الذين ينتمون إلى الخلفية نفسها وتقاسم الثقافة نفسها (اللغة والتقاليد والدين والتاريخ واللباس والغذاء ، وما إلى ذلك)*"[2].

---

(1)جمعية أنثروبولوجيا باريس (SAP) جمعية تأسست في عام 1859 من قبل بول بروكا، واعترف بها بموجب مرسوم 21 يونيو 1864. والغرض منها دراسة التاريخ الطبيعي للعالم. الإنسان، أي الأصل والتنوع البيولوجي للأنواع البشرية، انظر الموقع التالي:

https://fr.wikipedia.org/wiki/Soci%C3%A9t%C3%A9_d%27anthropologie_de_Paris

(2) https://www.de-plume-en-plume.fr/membre/5259

- **دراستــه فــي الإنســان وهو منفردٌ وفي تطور المجتمعات**: مكنته من تأليف كتاب «حضارة العرب La Civilisation des Arabes» عام 1884م، موضحاً فيه عناصر الحضارة العربية وتأثيرها في العالم، وباحثاً في أسباب عظمتها وانحطاطها وقدمها للعالم بشكلٍ موضوعي ومنصف.

- **"سيكولوجية الجماهير"**: مثّل نقطة تحول في حياة العالم الفرنسي غوستاف لوبون العلمية. لا يزال هذا العمل الأكثر شهرة إلى اليوم، ممثلاً في كتابه المهم "سيكولوجية الجماهير". يركز غوستاف لوبون على الأسباب الجماعية. يصف عمل الأفراد من خلال أنهم في مجموعة وحقيقة دعمهم ضمن أحداث تاريخية كبيرة، وسوف تشكل المبادئ التي يحددها في هذا الكتاب أساس الانضباط العلمي الجديد لـ: علم النفس الاجتماعي.

- **الصالون الثقافي**: نظم لوبون بدءاً من عام 1892م اجتماعات منتظمة لشخصيات مهمة في مختلف المجالات وتسمى "وليمة XX"، أي العشرين، وتجري في آخر يوم جمعة من كلِّ شهر. لكن من عام 1903م، تحوّل الاجتماع إلى أسبوعي "غداء الأربعاء".

أصبح صالونه الثقافي من أشهر الصالونات الثقافية التي تقام كل أربعاء أسبوعيًّا، وتحضره شخصيات المجتمع المرموقة، مثل: بول فالري Paul Valéry، و«هنري برغسون Henri Bergson، و«هنري بوانكاريه Henri Poincaré، الكسندر ازوفولسكيAlexander Izvolsky، مارسلين بيرتسلو Marcellin Berthelot، ارستيد برياند Aristide Briand، وغيرهم.

- أسهمَ في **الجدل الدائر حول المادة والطاقة**، وألف كتابه «تطور المواد (L'Évolution de la Matière)[1]» عام 1905م، الذي حظي بشعبية كبيرة في فرنسا. وملخص المقترحات حول هذه المسألة قدمت في بداية كتابه، وهي تعطي مضمون آرائه[2].

- لا يدعم لوبون **نظرية التسلسل الهرمي للحضارات**، لكنه يعترف بالاختلافات في مراحل التطور، ويدعم نظرية عالم الأحياء الداروينية الألمانية إرنست هيجل (1834-1919). لقد كرس حجمًا كبيرًا موضحًا لـ"حضارة العرب"،

(1) 'LE BON (Dr GUSTAVE). — L'évolution de la matière. Un vol. de 389 p. avec 62 fig. Paris, Flammarion, 1905

(2) https://www.persee.fr/docAsPDF/psy_0003-5033_1905_num_12_1_5986.pdf

وكان يتصور إيقاظًا مستقبليًا لأفريقيا ما زالت متخلفة في بداية القرن العشرين. بعد بعثة إلى الهند، نشر، في عام 1887م، عملاً رئيسياً آخر، هو "حضارات الهند". وهو يختلف في هذا بقوة عن آرثر جوبينو، ويكرر التنديد في أعماله "بأسطورة السباق الآري"، محذراً من أهداف الاستعمار القومية منذ عام 1924م.

بيد أنَّ بعض المفكرين الأوروبيين استفادوا من دراسات لوبون، ووظفوها إيجابياً كما يظهر في دراسات المؤرخ جورج لوفيفر Georges Lefebvre في كتابه دراسات حول الثورة الفرنسية[1] .

تبادل لوبون العديد من الرسائل مع عدد من الأكاديميين، بعضها منشور. وكل ذلك ينفي بعض المزاعم التي تقول بعدم حصوله على شهادة الطب. إنَّ التنوع وأهمية موقف المراسلين الأكاديميين مع لوبون لا يمكن وصفه منذ البداية على أنه خارج بيئة الجامعة[2].

(1) Georges Lefebvre, Études sur la Revolution française, Revue Historique, T. 214, Fasc. 1 (1955), pp. 128-130

(2) Gustave Le Bon (1841-1931), thèse dirigée par Etienne Fouilloux, Université Lumière-Lyon-II, décembre 1997. 4. Benoît Marpeau, «Les stratégies de Gustave Le Bon », Mil neuf cent, 9, 1991, p. 115-128

5 مختارات من كتاباته الفكرية والاجتماعية والإبداعية تبرز أسلوبه ورؤيته للعالم العربي

يُعدُّ غوستاف لوبون أحد أشهر المستشرقين والمؤرخين وعلماء الأنثروبولوجيا الذين أولوا اهتماماً بالغاً بدراسة الحضارات الشرقية على وجه العموم، والعربية والإسلامية منها خاصةً، حيث مكّنته جولاته التي قام بها في أوربا وآسيا وشمال أفريقيا من اكتشاف هذه الحضارات القديمة[1].

سعى لاكتشاف أسرار الحضارات الغابرة العظيمة التي كان لها تأثيرٌ على الإنسانية منطلقاً -كما هو الحال في جميع مؤلفاته- من مبدأ مبني على المشاهدات الواقعية لتلك الحضارات، فكان له ما أراد من نتائج علمية محايدة، وعمل بالبحث الأثري ودراسة تطور المجتمعات البشرية مبتدئاً بدراسة الحضارة العربية وتطور المجتمعات الإسلامية. لقد نهج بذلك طريقاً مغايراً لما كان عليه أغلب المستشرقين من طروحات قائمة على العرقية والعنصرية والأحكام المسبقة التي كانت سائدة آنذاك في فرنسا، وفي مقدمتها نظريات أرنست رينان Ernest Renan[2].

---

(1) http://www.mohamedzitout.com

(2) مؤرخ وكاتب فرنسي (1823- 1892) اشتهر بعدائه للأديان خصوصاً الإسلام.

يقول لوبون في هذا السياق، "*حقًّا إنَّ ما ذكره المؤرخون ضعيف إلى الغاية، ولا يقف أمام سلطان النقد، وطريقة التحليل العلمي أفضل وسيلة لإيضاح شأن أمة كالأمة العربية. والغرب وليد الشرق، ولا يزال مِفتاحُ ماضي الحوادث في الشرق، فعلى العلماء أن يبحثوا عن هذا المفتاح فيه*" . (حضارة العرب، ص 31).

لقد زار لوبون بين عامي 1882-1884 كلاً من: المغرب والجزائر وتونس ولبنان ومصر وسوريا وبغداد وتركيا، وتعرف من خلال زياراته على أوجه هذه الحضارة وإسهاماتها على العالم الغربي وتأثيرها فيه. اهتمَّ على وجه الخصوص بالبحث عن أسباب انحطاط هذه الحضارة العظيمة، وكان ثمرة جولاته تلك تأليفه لكتابه الشهير "حضارة العرب"[1] .

لقد أثرت رحلات لوبون إلى بلاد المشرق العربي وشمال أفريقيا واقترابه من المجتمعات العربية والحضارة الإسلامية على توجهاته البحثية خصوصاً بعد أن رأى مدى الجحود والنكران[2] اللذين ينظر من خلالهما الغرب

(1) لم يتم ترجمته إلى العربية إلا عام 2013 ، أي بعد 129 سنة من صدوره 1884م .
(2) ظهر التوجه غير المنصف للحضارة العربية لدى العديد من المستشرقين، مثل أرنست رينان وغيره، انظر :
http://www.culture-islam.fr/contrees/maghreb/ernest-renan-lislamisme-et-la-science-1883

للحضارة العربية، فقررَ أن يبحث من خلال منظوره الاجتماعي في تطور المجتمعات العربية والحضارة الإسلامية ليظهره في صورته الحقيقية.

إنَّ القارئَ لهذا العمل الكبير يستشف مدى إلمام مؤلفه:

- بجميع الجوانب عن الحضارة العربية بدقةٍ وإبداع.
- بالقرآن الكريم من خلال كثرة استدلاله بآيات قرآنية في بعض السياقات.
- وحرصه على توثيقه لمعلوماته بالصور الفوتوغرافية التي التقط معظمها بنفسه.

ذكر بعضَ طباع العرب حين تأليفه لكتابه عام 1884م وقد لا نجد معظمها حالياً بفعل تحول أدوات الحضارة عبر الزمن، ونعايش الآن تنوع المبتكرات، بل عصر الرقمنة، وتشابك المسافات بين الأمم وتقاربها.

وسنورد فيما يلي بعض الاستشهادات من كتابه لتلك الجوانب التي تناولها عن الحضارة العربية بحيادية وعلمية عالية:

نشر لوبون كتاب "حضارة العرب" عام 1884م، متضمناً رسوماً فوتوغرافية كثيرة صوَّر معظمها بنفسه.

سوف نقتطف من هذا الكتاب بعض الفقرات، مع التركيز على الأحداث التاريخية والمعلومات المهمة، وقد ساهم هذا العمل في توضيح ورسم صورة صحيحة عن تلك الفترة المهمة فيما بين القرنين السابع والخامس عشر الميلاديين[1]، من تاريخ العرب والمسلمين وبالتالي يعطى صورة واضحة ومختصرة.

يتكون الكتاب من ستة أبواب على النحو التالي: (البيئة والعرق- مصادر قوة العرب- دولة العرب- طبائعُ العرب ونظمُهم- حضارة العرب- انحطاط حضارة العرب)، ويشتمل الكتاب على 10 لوحات و 4 خرائط و 363 صورة.

من **نقاط قوة الكتاب** أنه مزود بصور فوتوغرافية بعضها من تصوير المؤلف، والبعض الآخر استعاره من كتب مؤلفين آخرين، لكن جميعها توثق الحقب التي يتناولها الكتاب من حضارة العرب، فيصوِّر بعدسته هيئات النساء وملابسهن وحليهن وجلستهن، وترحال الرجال وتدخينهم

(1) نشر الكتاب في نهاية القرن التاسع عشر، أي تقريباً بعد أفول إمبراطورية الحضارة العربية نهاية القرن الخامس عشر، خصوصاً في الأندلس، وبالرغم من معاصرته لبقايا الحضارة العثمانية، لكن في فترة نهايتها الضعيفة، ولذلك لم يركز كثيراً على الفترة التي تلت انهيار الدولة الأندلسية وما تلاها، ومنها الحقبة العثمانية.

الأرجيلة وغيرها، أضف إلى ذلك الأشكال المعمارية التي يتنقل الكتاب بين عصورها وجنسياتها المختلفة في مصر ودمشق وبغداد وإسبانيا والهند... إلخ.

ويفخر بأنَّ كتابه أول كتاب انتفع بالفوتوغرافية، وعليه فقد استشهد بالصور الماثلة

"وما تلقيه صور الآثار التاريخية في الروع من المعاني الصادقة يدفعنا إلى الإكثار منها في هذا الكتاب" (حضارة العرب، ص 37).

ويظهر شغفه وفهمه للتصوير حينما يقول: *"وعدسة التصوير صادقة في ذلك كله لا ريب، ولكن الطبيعة هي التي تتغير، فالبناءُ أو المنظر الواحد الذي تضيئه الشمس في الشتاء لا يظل البناء أو المنظر نفسه حين إضاءة الشمس له في الصيف، أو حين إضاءتها له في الصباح أو المساء"* ، (المصدر نفسه، ص 38).

المنهج : اعتمد منهجاً تحدث عنه في كتابه: *"ولا تكفي ألفاظ أيَّةِ لغةٍ لوصف آثار الشعوب، ولاسيما آثار الشرقيين، وإنما نطلع بالمشاهدة على مناظرها ومبانيها وفنونها وعروقها، ولا يستطيع أروعُ القول أن يؤثرَ في*

النفس بمثل ما تؤثِّر به رؤية الأشياء نفسها أو صورها عند الضرورة، وليعلم القارئ أنَّ كلَّ فصل في هذا الكتاب هو خلاصةُ عدة مباحث، وما أبديته من الملاحظات يمكن عدُّه متمِّماً لها." (1)

ويلخص المنهاج الذي اتَّبعه في وضع هذا الكتاب، وفيما يؤلفه من تواريخ الحضارات، بما يأتي، فيقول:

"من المبادئ العامة: الوجوبُ في وقوع الحوادث التاريخية، والصلةُ الوثيقة بين الحوادث الحاضرة وحوادث الماضي.

ومن موادِّ التأليف: آثارُ الشعوب التي هي موضوع الدرس وتصويرها تصويراً صادقاً، ووصف العِرق جسمًا وعقلًا، والبيئةُ التي نشأ فيها العِرْق، والعواملُ التي خضع لها، وتحليلٌ لعناصر الحضارة، أي للنُّظم والمعتقدات والعلوم والآداب والفنون والصِّناعات، وتاريخٌ لتكوين كلِّ واحدٍ من هذه العناصر". (المصدر نفسه، ص 39).

ويؤكد للقارئ عن منهجه تطبيقه للقواعد الموضوعية لعرضه بعض القضايا التي شابها التشويه وعدم الحيادية من البعض، *"وسيجد في هذا الكتاب تطبيقاً للقواعد التي*

(1) حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص 37

ابتعدنا بها عن أكثر أحكامنا التقليدية الموروثة في الشرقيين، ولا سيما في دين محمد وتعدد الزوجات والرق والحروب الصليبية، والنظم والفنون وتأثير العرب في أوروبة، وما إلى ذلك" المصدر نفسه، ص 36).

وهو بذلك يوجه رسالته للقارئ الغربي بأن يتخلى عن أحكامه السلبية المسبقة، وينظر في أن *"ذلك الوصف مخالف للحق، وأرجو أن يثبت عند القارئ الذي يقرأ هذا الفصل، بعد أن يطرح عنه أوهامه الأوروبية جانباً، أن مبدأ تعدد الزوجات الشرقي نظام طيب يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تقول به، ويزيد الأسرة ارتباطاً، ويمنح المرأة احتراماً وسعادة لا تراهما في أوروبة"* ، (المصدر نفسه، ص 411).

ويضيف *"وحقوق الزوجة التي نص عليها القرآن ومفسروه أفضل كثيراً من حقوق الزوجة الأوروبية..."* ، المصدر نفسه، ص 422).

ويختم في هذه المسألة بالقول: *" وإنني أطمع أن يعتقدَ القارئ، بعد وقوفه على ما تقدم، أن مبدأ تعدد الزوجات أمرٌ طيبٌ، وأنَّ حبَّ الأسرة وحسن الأدب وجميل الطبائع أكثر نمواً في الأمم القائلة به مما في غيرها على العموم،*

وأنَّ الإسلام حسَّن حال المرأة كثيراً، وأنه أولُ دين رفع شأنها، وأنَّ المرأةَ في الشرق أكثر احتراماً وثقافة وسعادة منها في أوربة على العموم تقريباً"، (المصدر نفسه، ص 428).

أسباب كتابته عن الحضارات: كان من أسباب كتابته عن الحضارات وعلى الخصوص حضارة العرب ما قاله: *"وإننا، بعد أن بحثنا في الإنسان وهو منفردٌ وفي تطور المجتمعات، نرى أن نطبقَ قواعدنا التي بسطناها هنالك على الحضارات العظيمة إكمالًا لبرنامجنا. وبالعرب بدأت، وسبب ذلك: أنَّ حضارتهم من الحضارات التي اطَّلعتُ عليها في رِحلاتي الكثيرة أحسنَ مما اطلعت على غيرها من الحضارات التي كَمُل دورها، وتجلى فيها مختلف العوامل التي أوضحنا سرَّها في ذلك الكتاب، وهي من الحضارات التي نرى الاطلاعَ على تاريخها مفيدًا إلى الغاية وهو أقلُّ ما عرفه الناس.*

وكلما أمعنا في درس حضارة العرب، وكتبهم العلمية، واختراعاتهم، وفنونهم ظهرت لنا حقائقُ جديدةٌ وآفاقٌ واسعة، ولسُرعان ما رأينا أنَّ العربَ أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأنَّ جامعات

الغرب لم تعرف لها، مدة خمسة قرون، موردًا علميًّا سوى مؤلفاتهم، وأنهم هم الذين مدَّنوا أوربة مادةً وعقلًا وأخلاقًا، وأنَّ التاريخَ لم يعرف أمةً أنتجت ما أنتجوه في وقتٍ قصير، وأنه لم يَفُقْهم قوم في الابتداع الفنيِّ" [1] [2].

وفي تاريخ العرب يوضح ما فيه من *"مسائل كثيرة تتطلب حلًّا وفيها دروس وعبر جديرة بالحفظ، والعرب عنوان أمم الشرق التي تختلف عن أممِ الغرب، ولا تزال أوربة جاهلة لشأنهم، فلتعلم كيف تعرفهم"*، (المصدر نفسه، ص 32).

ويشير لوبون إلى أهمية الرحلات للاطلاع عن كثب، ونقل ما ترى العين: *"وتُعلمنا الرحلات كيف نتحرر من قيود الآراء المتأصلة والتقاليد الموروثة وضلال الماضي وباطله"*، (المصدر نفسه، ص 36).

دور الفوتوغرافية: آلة التّصوير فكرة قديمة، ومرت

(1) حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص 29.

(2) بالرغم من العرض المنصف للمستشرق لو بون عن الحضارة العربية، ومعارضته للاستعمار، فمن المفاراقات أنه قد صاحبت زياراته استعمار فرنسي وبريطاني لمعظم البلدان العربية والإسلامية، وهي من الأسباب الرئيسة التي دعته إلى الكتابة عن الحضارات الكبرى كالحضارة العربية، نظير الأصوات العريضة والمليئة بنبرة العنصرية والاستعلاء الأوروبية.

بمراحل حتى تمكّن لويس داجير Louis Daguerre[1] من تصميم أول آلة تصوير في عام 1839م، وتم تطوير الكاميرات شيئاً فشيئاً، ففي عام 1861م استطاع العالم الفيزيائيّ جيمس ماكسويل James-Clerk-Maxwell[2] بمساعدة المصور سوتون الحصول على أول صورة بالألوان.

وحيث ان الصورة للمعالم التاريخية خير شاهد لإظهار وتوثيق تلك المعالم لأي حضارة.

"والفوتوغرافية هي التي يمكن أن تجود علينا بصورٍ صحيحة للأبنية والآثار الفنية والمناظر وأمثلة الشعوب ومظاهر الحياة المنزلية، وبها نستعين في وضع هذا الكتاب، فما تقدر عليه الفوتوغرافية عليه من الدقة في بضع ثوان لا يستطيعه أمهر رجال الفن في أيام كثيرة"، (المصدر نفسه، ص37) .

ويستشرف لوبون أهمية التصوير بقوله: *"وربما يقع ذلك في المستقبل، الذي يعبر فيه عن وقائع التاريخ والحوادث الاجتماعية بالصور والخرائط والمنحنيات الهندسية، نرى أن نستعين بأصح الآثار، والأدلة، التي خلفها الماضي، وأكثرها ضبطاً، وعندي أن ما لدينا من*

(1) https://www.britannica.com/biography/Louis-Daguerre

(2) https://www.britannica.com/biography/James-Clerk-Maxwell

المواد التي ذكرناها يكفي لوضع صورة عن الحضارات الماضية وتاريخ تكوينها، ويجب، للانتفاع بتلك المواد، أن تُدرس آثار الحضارات الماضية في أمكنتها، فمناظر هذه الآثار، لا الكتب، هي التي تُعبر عن الماضي، وليس في الكتب ما تُعرف به العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية"" ، (المرجع نفسه، ص 36).

ويضيف إلى إتمام العلوم بفضل المخترعات لجيل المستقبل، مثل التصوير:

"وقد تكون تلك المواد غير كافية من حيث الضبط والدقة على الخصوص، والعلم الحديث يترك إتمامها للحفدة، ومن السهل أن نتوقعَ اختلافاً بين كتب التاريخ التي تؤلف في المستقبل وكتب التاريخ والحضارة، فستقتصر كتب تاريخ الحضارات التي تؤلف في القرن العشرين، مثلاً، على العنوان ومجموعة من الصور والخرائط والمنحنيات الهندسية الدالة على تقلبات الحوادث الاجتماعية" ، (المرجع نفسه، ص 35).

ويؤكد على أن *"تكون دراسة البيئات في أمكنتها أمراً ضرورياً عندما يُبحث في أمة، كالأمة العربية، ذات آثار كثيرة في مختلف الأقطار التي ازدهرت حضارتها فيها،*

وتُعلمنا الرحلات كيف نتحرر من قيود الآراء المتأصلة والتقاليد الموروثة وضلال الماضي وباطله""، (المرجع نفسه، ص 36).

يفخر غوستاف لوبون بأنه أول من وظّف الفوتوغرافية في كتابه: "حضارة العرب"، ويقول: "*وهذا الكتاب هو أول الكتب انتفاعاً بالفوتوغرافية، وفيه يرى القارئ مقدار النتائج المهمة التي توصلنا إليها بفضل الفوتوغرافية، وكلّ صورة فوتوغرافية اشتمل عليها وثيقة صادقة قوية لا يتطرق إليها الوهن."*، (المرجع نفسه، ص37).

أثر الحضارة العربية على أوروبا: يؤكد لوبون أنَّ *"الغرب وليد الشرق ولا يزال مفتاح ماضي الحوادث في الشرق فعلى العلماء أن يبحثوا عن هذا المفتاح"* ، (المصدر نفسه، ص 31).

يعترف بفضل العرب على أوروبا وإيقاظها من سباتها فيقول: *"إنَّ المسلمين هم الذين مَدَّنوا أوروبا وليس العكس، وإنَّ العرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي، فكانوا مُمدِّنين لنا وأئمةً لنا ستة قرون"*. (المصدر نفسه، ص 601).

ويضيف أنَّ تأثير الشرق في تمدين الغرب "*كان عظيمًا جدّا بفعل الحروب الصليبية، وأنَّ ذلك التأثير كان في الفنون والصناعات والتجارة أشد منه في العلوم والآداب، وإذا ما نظرنا إلى تقدم العلاقات التجارية العظيم باطرادٍ بين الغرب والشرق، وإلى ما نشأ عن تحاكِّ الصليبيين والشرقيين من النُّمُوِّ في الفنون والصناعة — تجلى لنا أنَّ الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش، وأعدوا النفوس إلى التقدم بفضل علوم العرب وآدابهم التي أخذت جامعات أوروبا تُعوِّلُ عليها؛ فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم*". (المصدر نفسه، ص 350).

ومن ردوده على الذين لم يعترفوا بفضل الحضارة العربية والإسلامية: «*كلما أمعنا في درس حضارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة، ولسرعان ما رأينا أنَّ العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون مورداً علمياً سوى مؤلفاتهم، وأنهم هم الذين مدَّنوا أوروبا مادةً وعقلاً وأخلاقاً، وأنَّ التاريخَ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقتٍ قصيرٍ، وأنه لم يَفُقْهم قوم في الابتداع الفني*» – (المصدر نفسه، ص 38–39).

ينتقل لوبون إلى دور المسلمين والعرب في بلاد الأندلس باعتبارها كانت معبر العلوم والحضارة الإسلامية إلى أوروبا، حيث قال:

"وظن رئيس الأساقفة الإسباني أكزيمينيس أنه، بإحراقه مؤخرًا ما قَدَر على جمعه من مخطوطات أعداء دينه العرب (أي ثمانين ألف كتاب)، مَحَا ذكرهم من صفحات التاريخ إلى الأبد، وما دَرَى أنَّ ما تركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد إسبانية، خلا مؤلفاتهم، يكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد". (المصدر نفسه، ص288).

ويصف حال إسبانيا قبل الفتح الإسلامي وما كانت عليه من تخلف وكيف أصبحت أثناء العصر الإسلامي، *"كانت إسبانية النصرانية ذات رخاء قليل وثقافة لا تلائم غير الأجلاف في زمن ملوك القوط، ولم يكد العرب يتمُّون فتح إسبانية حتى بدؤوا يقومون برسالة الحضارة فيها، فاستطاعوا في أقل من قرن أن يحيوا ميت الأرضين، ويعمروا خرب المدن، ويقيموا فخم المباني، ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى، ثم شرعوا للتفرغ لدراسة العلوم والآداب، ويترجمون كتب اليونان واللاتين، وينشؤون الجامعات التي ظلت وحدها ملجأ للثقافة في*

أوربة زمناً طويلاً" ، (المصدر نفسه، ص 287).

ويوضح بأنَّ كثيراً من النصارى *"لم يُسلموا طمعًا في كبير شيء، وهم الذين استعربوا فغَدَوْا هم واليهود مساوين للمسلمين قادرين مثلهم على تقلد مناصب الدولة، وكانت إسبانية العربيةُ بلدَ أوربة الوحيد الذي تمتع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها، فصار عددهم فيه كثيرًا جدًّا"*. (المصدر نفسه، ص291).

ويفترض جدلاً بأنَّ الأوروبيين عجزوا عن دحر العرب لمواصلتهم فتوحاتهم شمال أوروبا *"وأنَّ العربَ وجدوا جوَّ شمال فرنسة غير بارد ولا ماطر كجو إسبانية فطابت لهم الإقامة الدائمة به، فماذا كان يصيب أوربة؟ كان يصيبُ أوربة النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب إسبانية من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي العربي، وكان لا يحدث في أوربة التي تكون قد هُذِّبت ما حدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية، وملحمة سان بارتلمي، ومظالم محاكم التفتيش ...*

وكل ما لم يعرفه المسلمون من الوقائع التي ضَرَّجَت أوربة بالدماء عدة قرون". (المصدر نفسه، ص 328).

ويشير إلى حال أوروبا إبان الإشعاع الثقافي العربي الأندلسي خصوصاً في القرنين التاسع والعاشر بالقول: *"ولا*

يمكن إدراك أهمية شأن العرب إلَّا بتصور حال أوربا حينما أدخلوا الحضارة إليها.

إذا رجعنا إلى القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد، حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جدًّا، رأينا أنَّ مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجًا يسكنها سنيورات متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرؤون، وأنَّ أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين الذين يقضون أوقاتهم في أديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين النفيسة بخشوع" (المصدر نفسه ، ص586).

بل تتجسد في أنه *"ظلت ترجمات كتب العرب، ولا سيما الكتب العلمية، مصدرًا وحيدًا، تقريبًا للتدريس في جامعات أوربة خمسة قرون أو ستة قرون، ويمكننا أنَّ نقول: إنَّ تأثيرَ العرب في بعض العلوم، كعلم الطب مثلًا، دام إلى أيامنا، فقد شُرِحَت كتب ابن سينا في مونپلية في أواخر القرن الماضي"*. (المصدر نفسه، ص589).

وذهب أبعد من ذلك فيما لو فتح العرب أوربا كافة، *"ويُروى مع التوكيد، أنَّ موسى بن نصير فكر، بعد فتح إسبانية، في العودة إلى سورية من بلاد الغول وألمانية، وفي الاستيلاء على القسطنطينية، وفي إخضاع العالم القديم*

لأحكام القرآن، وأنه لم يعقه عن ذلك العمل العظيم سوى أمر الخليفة إياه بأن يعودَ إلى دمشق، فلو وفق موسى بن نصير لذلك، لجعل أوروبا مسلمة، ولحقّق للأمم المتمدنة وحدتها الدينية، ولأنقذ أوربة، على ما يحتمل، من دور القرون الوسطى الذي لم تعرفه إسبانية بفضل العرب" (المصدر نفسه ص281).

مقارنة الفتوحات العربية بما أتى من بعدهم : كان من سياسة العرب في أيِّ بلدٍ دخلوه "أن يكونوا على وئامٍ مع الأهالي المغلوبين، وأن يحترموا دينهم وشرائعهم" (المصدر نفسه، ص 313).

ويصف نتيجة الفتوحات العربية للأمم الأخرى بالقول: *"وللفتوح العربية طابعٌ خاص لا تجد مثلَه لدى الفاتحين الذين جاؤوا بعد العرب، وبيانُ ذلك أنَّ البرابرة الذين استولوا على العالم الروماني والتركَ وغيرَهم، وإن استطاعوا أن يقيموا دولًا عظيمة، لم يؤسسوا حضارة، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشَقَّةٍ من حضارة الأمم التي قهروها، وعكسُ ذلك أمر العرب الذين أنشؤوا بسرعةٍ حضارةً جديدةً كثيرةَ الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها* (المصدر نفسه، ص 144).

سلوكيات الحضارة العربية: تحدث لوبون عن نقطة مهمة جداً وهي سلوكيات المسلمين التي انعكست على تعاملهم مع غيرهم خصوصاً في فترة الفتوحات الإسلامية بينما كانت سلوكيات الغرب خلاف ذلك متمثلة في الصليبيين، ويستشهد في هذا الشأن بالتالي:

"ويُثبِت لنا سلوك أمير المؤمنين عمرَ بن الخطاب في مدينة القدس مقدارَ الرفق العظيم الذي كان يعامل به العربُ الفاتحون الأمم المغلوبة، والذي ناقضه ما اقترفه الصليبيون في القدس بعد بضعة قرون مناقضةً تامة، فلم يُرد عمر أن يدخل مدينةَ القدس معه غيرُ عددٍ قليل من أصحابه، وطلب من البطرك صفرونيوس أن يرافقه في زيارته لجميع الأماكن المقدسة، وأعطى الأهلين الأمان، وقطع لهم عهدًا باحترام كنائسهم وأموالهم، وبتحريم العبادة على المسلمين في بَيعِهم". (المصدر نفسه، ص 143).

ويضيفُ في موضعٍ آخر من كتابه: *"فالحقُ أنَّ الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ولا دينًا مثل دينهم"*. (المصدر نفسه، ص630).

ويؤكد على صفة التسامح التي تميز بها عرب الأمس، *"فهم الذين علموا الشعوب النصرانية، وإن شئت فقل*

حاولوا يعلموها، التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان" (المصدر نفسه ص290)، وأتى بمثال أنه سمح لأساقفهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية كمؤتمر أشبيلية النصراني عام 782م ومؤتمر قرطبة عام 852م، وهذا يقودنا إلى الحقيقة، هذه أمة كانت تملك مثل هذه الصفات ولذلك سادت، فمن أين أتت بعض الفرق المعاصرة بهذه المبادئ لتي تقوم على الحقد والكراهية وإقصاء الآخر حتى لو كان من أبناء جلدتهم ويدين بدينهم؟

لذلك يقول *"وأسلم كثير من النصارى، ولكنهم لم يسلموا طمعاً في كبير شيء، وهم الذين استعربوا فغدوا هم واليهود مساوين للمسلمين قادرين مثلهم على تقلد مناصب الدولة، وكانت إسبانية العربية بلد أوربة الوحيد الذي تمتع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها، فصار عددهم فيه كثيراً جداً."*، (المصدر نفسه، ص 291). ولم يكتفِ العرب بأنهم كانوا أصحاب أخلاق سامية بل *" أحسنوا كثيراً إلى الحضارة بنشرهم من المشاعر في أنحاء العالم ما يحول دون ارتكابها"*، (المصدر نفسه، ص295).

ويذكر بأنَّ مسلمي الصين ينحدرون من الكتيبة التي أمد بها الخليفة أبو جعفر المنصور الإمبراطور سوتسونغ 755م

حينها سمح لهم بالإقامة تكريماً لمساندتهم، ويتطرق إلى ما للسجايا الخلقية الحميدة من أهمية كبرى في ارتباط حوادث التاريخ، "*حيث السجايا الخلقية التي تنتقل بالإرث هي التي تُعيِّن اتجاه السير* "*ونشأ عما فطر عليه مسلمو الصين من التسامح والروح الحرة واحترامهم عادات الصين وشرائعها ومعتقداتها أن يتمتعوا بما للصين من الحقوق، وأن يكون منهم حكام وقواد ومقربون من الإمبراطور*"، (المصدر نفسه، ص 88).

ويرد على بعض المستشرقين الذين زعموا أنَّ الدين الإسلامي قد انتشر بالسيف: «*وسيرى القارئ حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم أنَّ القوةَ لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض أقوام النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين مما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل*». (المصدر نفسه ص134). ويعطي مثالاً على نفوذ العرب على مناطق لم يدخلوها فاتحين، "*بلغ نفوذهم الهند التي لم يدخلوها إلَّا عابري سبيل، وبلغ بلاد الصين التي لم*

يزوروها إلَّا تجاراً" ، (المصدر نفسه، ص 584).

ويختزل كل ما اشتملت عليه الحضارة العربية واستمدت قوتها وانتشارها واستمراريتها وتأثيرها بالتالي:

"لم تَقلِّ براعة الخلفاء الأولين السياسية عن براعتهم الحربية التي اكتسبوها على عَجَل، وذلك أنهم اتصلوا منذ الوقائع الأولى بسكان البلاد المجاورة الأصليين الذين كان يبغي عليهم قاهروهم منذ قرون كثيرة، والذين كانوا مستعدين لأن يستقبلوا بترحاب وحبور أي فاتح يخفِّفُ وطأة الحياة عنهم، وكانت الطريق التي يجب على الخلفاء أن يسلكوها واضحة، فعرفوا كيف يُحجِمون عن حمل أحد بالقوة على ترك دينه، وعرفوا كيف يتعدون عن إعمال السيف فيمن لم يُسْلِم، وأعلنوا في كلِّ مكان أنهم يحترمون عقائد الشعوب وعُرفها وعاداتها، مكتفين بأخذهم، في مقابل حمايتها، جزيةً زهيدةً تقل عما كانت تدفعه إلى سادتها السابقين من الضرائب". (المصدر نفسه، ص143).

ويتجسد التسامح لدى المسلمين في حق التملك لأهل الأرض التي دخلت ضمن الفتوحات العربية،" *ليس في القرآن غير الإجمال لحق التملك، ولكن المفسرين أحسنوا ترتيبه. وبالغ العرب في احترام حق التملك، حتى ما كان*

منه خاصاً بالمغلوبين، ومن ذلك أنَّ الأراضي التي أُخذت من المغلوبين بالفتح أعيدت إليهم على أن يؤدوا خراجاً قلما يزيد على خُمس محصولاتها" (المصدر نفسه، ص 401).

وفي جانب الأسرة: يتطرقُ إلى ظاهرةٍ اجتماعية كانت في عصره، فما بالك بعد حوالي 88 سنة من وفاته وهي مقومات المجتمع ويحث المسلمين إلى التمسك بها: *"وتتمتع شعوب الشرق بما خسرناه من التماسك، فمعتقدات هذه الشعوب لا تزال قويمة، وتحافظ أسرها على استقرارها القديم، وبقيت مقومات المجتمعات القديمة كالديانة والأسرة والنظم والتقاليد والعادات، وهي التي أصابها في الغرب من الهدم ما أصابها، مؤثرة في الشرق مسيطرة عليه، وليس على الشرقيين أن يفكروا في تبديلها"* ، (المصدر نفسه ص 33).

الإسلام والعلم: أشرنا سابقاً بأنَّ لوبون عايش الاكتشافات العلمية الكبرى إبان القرن التاسع عشر، وعن تأثيرِ الدين الإسلامي وملاءمته للاكتشافات العلمية، يقول: *"الإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهذيباً للنفوس وحملاً على العدل والإحسان*

والتسامح، والبدهية..." ، (المصدر نفسه، ص 132).

فن العمارة لدى العرب: امتدح فن العمارة لدى العرب، وأنهم بعدما اطلعوا على ما لدى الأمم الأخرى، استفادوا منهم وزادوا عليهم، حتى أصبح لهم فنهم المعماري الخاص بهم، *"كل ما تفعله الأمة في بدء الأمر هو أنها تقتبس من الأمم التي جاءت قبلها، ثم تضيف إلى ما أخذته أموراً أخرى... وإذا أمعنت النظر في المباني العربية، كالقصور التي أقامها العرب في الأندلس أو المساجد التي أقاموها في القاهرة، رأيت العناصر الأولى التي تألفت منها بلغت من التمازج درجة يتعذر معها الانتباه إلى المصادر التي اشتقت منها."* (المصدر نفسه، ص 516).

لذلك *"استخدم العرب، في بدء إقامتهم بإسبانية، مهندسين من الروم، ولكن العرب لم يلبثوا أن أثروا بعبقريتهم الفنية في أولئك المهندسين، وبلغ إيحاؤهم في أمور الزينة مبلغاً صار يتعذر معه على أقل الناس دقة أن يخلط مبانيهم بالمباني البيزنطية"* . (المصدر نفسه، ص295).

ويرى بأنه كان للعرب طابعهم المعماري أينما كانوا: *"هذا الطابع الخاص في مختلف المباني التي شادها العرب في مختلف الأقطار، فقصر الحمراء في غرناطة أو جامع*

السلطان حسن في القاهرة أو باب علاء الدين في دهلي أو غيره، وإن بدا عليه تأثير البيئة التي يعيش فيها المهندسون الذين رسموه، جمعت بينه وبين المباني الأخرى التي شادها العرب في الأقطار الأخرى صفات فن العمارة العربي العامة". (المصدر نفسه، ص 296).

نبوغهم في علوم أخرى : ويؤكد أن الشرق *"مرجعٌ دائم لرجال الفن والعلم والأدب"* (المصدر نفسه، ص 31).

ولضيق المجال من ذكر كل الاستشهادات التي أوردها لوبون عن نبوغ العرب في مجالات علمية عدة، نكتفي بالتالي:

- الجبر: *"حوَّل العرب علم الجبر تحويلاً تاماً وإليهم يرجع الفضل في تطبيقه على علم الهندسة"* (المصدر نفسه، ص 471).

الحرية وحياة البادية : ويعترف بأنَّ العربَ *"لهم الأسبقية فيما يعرف بحرية الفكر"* ، (المصدر نفسه، ص 458).

وفي مثال لحب العرب للحربة وعدم خضوعهم للاستعباد من الأمم التي كانت قوية آنذاك مثل الفرس، يقول: *"ولذا لم يستذل الأعراب أحد، وهم الذين لم يعطوا*

ملوك فارس الجزية، وقد أعطاها أهل فينيقية وفلسطين كما ذكر هيرودتس"، (المصدر نفسه، ص 76).

وقد تكون حياة البدو الصحراوية وبيئتهم أكسبتهم فضاء الحرية. ونجده يمتدح حياة البادية لما فيها من السحر والجمال: *"ولا أتردد ثانية في ترجيحها على حياة المصانع التي يقضي العامل فيها اثنتي عشرة ساعة من كلِّ يوم"*، (المصدر نفسه، ص 76).

ويبدو أنَّ لوبون عايش حياة البدو ورأى منهم وفي حياتهم ما جعله يعدّهم حينئذٍ أفضل أمم الرعاة في العالم: *"وعندي أن أهل البدو من العرب، مع بقائهم على الفطرة وعدم تحولهم قيد أنمله عن الحال البدائية التي كانوا عليها منذ أقدم العصور، أفضل من جميع أمم الرعاة في العالم، وقد أتيح لي أن أحادثهم غير مرة، فظهر لي أنَّ مبادئهم في الحياة تعدلُ مبادئ كثير من الأوروبيين العريقين في الحضارة، وسنرى أنَّ الأعرابَ الأجلافَ بعاداتهم شعراء بتصوراتهم، ويندر أن يكون الأعرابي غير شاعر"*. (المصدر نفسه، ص77).

انتشار الإسلام بالسيف أم بغيره؟ تاريخ المسلمين شاهد على بقاء غير المسلمين في دولة الإسلام من غير أن يكرهوا على تغيير دينهم.

"ولم ينتشر القرآن بالسيف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرًا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند، التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل". (المصدر نفسه، ص 134).

ولإثبات ما ذهب إليه من تسامح المسلمين يورد رأي آخرين من بني جلدته شهدوا بذلك، فيقول: "*ومنهم تثبت أن رأينا في هذه المسألة ليس مقتصراً علينا، قال روبرتسون في كتابه: «تاريخ شارلكن» "إنَّ المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى وإنهم، مع امتشاقهم الحسام نشرًا لدينهم، تركوا من لم يرغبوا فيه أحرارًا في التمسك بتعاليمهم الدينية».* (المصدر نفسه، ص 137).

وقال ميشود Michaud في كتابه: «تاريخ الحروب الصليبية»[1]: «إنَّ القرآنَ الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وقد أعفى البطاركة والرهبان

(1) Michaud, J.F. 1852. History of the Crusades. Translated by W. Robson, p. 287.

ملاحظة على المرجع السابق: اطلعت على الترجمة للإنجليزية ولم أتمكن من الاطلاع على النسخة الأصل بالفرنسية.

وخدمهم من الضرائب، وحرَّم محمد قتل الرهبان؛ لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس، فذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود بلا رحمة وقتما دخلوها»، وقال الراهب ميشود في كتابه: «رحلة دينية في الشرق»: «*ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آيةُ الإحسان بين الأمم، واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة*"، *المصدر نفسه*"، (المصدر نفسه، ص 138).

سلوكيات كل من الإسبان عند طرد العرب من الأندلس والصليبيين وغزواتهم :

في إسبانيا : يعلق لوبون على هول تعذيب العرب وإخراجهم من إسبانيا بالقول: "*ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التي اقترفت ضد المسلمين*". (المصدر نفسه، ص 286).

وما تلته من محاكم تفتيش حيث كانت إسبانيا بفضل العرب قمة المجد لتهبط لدركات الانحطاط، حيث، "*لم تكن ذات حضارة تُذكر قبل الفتح العربي، فصارت ذات*

حضارة ناضرة في زمن العرب، ثم هبطت إلى الدرك الأسفل من الانحطاط بعد جلاء العرب". (المصدر نفسه، ص287).

وفي إشارة مهمة حول ما قام به رئيس أساقفة إسبانيا حينئذٍ من حرق لكتب العرب ومخطوطاتهم واستهجانه لهذا التصرف يقول: *"وظن رئيس الأساقفة الإسباني أكزيمينيس أنه، بإحراقه مؤخراً ما قدر على جمعه من مخطوطات أعداء دينه العرب (أي ثمانين ألف كتاب)، محا ذكرهم من صفحات التاريخ إلى الأبد، وما درى أن ما تركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد إسبانية، خلا مؤلفاتهم، يكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد"* ، (المصدر نفسه، ص 289).

كيف لا، ومثل هذه التصرفات الهمجية يتكرر مع الأسف عبر التاريخ. نتذكر هجمة المغول وما دمروه من إرث إنساني، وتصرفات بعض الفرق في الوقت المعاصر كما في أفغانستان والعراق وسوريا وغيرها، والتي لم تقرأ وتفهم تاريخ مجد الأجداد المشرق والباقي عبر الزمان، كيف لا وهم الذين عمروا ولم يخربوا في أي بلد فتحوه فسادوا.

الحروب الصليبية: لقد انتقد الجرائم الفظيعة التي صاحبت الحروب الصليبية، وأنَّ ما قاموا به يتنافى مع أبسط

المبادئ الإنسانية، وقارن بين عدل وتسامح وتعامل العرب مع ما بدر من جيوش الصليبين خلال حملاتهم التسعة: *"إنَّ مبادئ الحقوق النظرية المدونة في الكتب لم تكن دليل أمة في أي زمن، وإنَّ المبادئ التي احترمتها الأمم هي التي أيدتها قوة السلاح كما أثبته التاريخ، وإنَّ البابوات لم يسيروا على غير سَنَنِ الفاتحين في الماضي والمستقبل، حينما حرضوا النصارى على الحروب الصليبية الطاحنة المنافية لأبسط قواعد الإنصاف من الناحية النظرية"*، (المصدر نفسه، ص344).

ورأى أنَّ النتيجةَ المهمةَ من وراء هذه الحروب الصليبية هو اتصال الغرب بالشرق حيث كان ذلك من أقوى عوامل نمو الحضارة الأوروبية فيما بعد.

وعن احترامهم لآثار الأمم التي سبقتهم، يذكر أنه *"ظهر مما تقدم أنَّ العربَ احترموا منذ دور الفتح الأول، آثار الأمم التي مَلَكوها، ولم يفكروا في غير الانتفاع بحضارتها وترقيتها، وذلك خلافًا لكثير من الأمم الفاتحة التي جاءت بعدهم*، (المصدر نفسه، ص 185).

تأثير الحضارة العربية في العالم: أكد لوبون في أكثر من مكان من كتبه -خصوصاً في كتابه الذي نستمد منه أكثر

الاستشهادات "حضارة العرب" - عن تأثير ودور الحضارة العربية على العالم في تلك الحقبة، *"إنه كان للحضارة الإسلامية تأثيرٌ عظيم في العالم، وإنَّ هذا التأثير خاصٌّ بالعرب وحدهم فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم، وإنَّ العربَ هَذَّبوا البرابرَة الذين قَضَوا على دولة الرومان بتأثيرهم الخُلقي، وإنَّ العربَ هم الذين فتحوا لأوربة ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي، فكانوا مُمدِّنين لنا وأئمةً لنا ستة قرون."* (المصدر نفسه، ص 601).

ويذهب أبعد من ذلك بالقول: *"ولا نرى في التاريخ أمةً ذات تأثير بارز كالعرب، وذلك أنَّ جميعَ الأمم التي اتصل العرب بها اعتنقت حضارتهم، ولو حينًا من الزمن، وأنَّ العربَ لما غابوا عن مسرح التاريخ انتحل قاهروهم كالترك والمغول...إلخ، تقاليدهم، وبَدَوا للعالم ناشرين لنفوذهم، أجل، ماتت حضارة العرب منذ قرون، ولكن العالم لا يعرف اليوم غير دين أتباع النبي ولغتهم في البلاد الممتدة من المحيط الأطلنطي إلى السند، ومن البحر المتوسط إلى الصحراء"*. (المصدر نفسه، ص 584).

ويعطي مثالاً من حضارات أخرى، *"وما عجز الأغارقة*

والفرس والرومان عنه في الشرق قَدَرَ عليه العرب بسرعة ومن غير إكراه". (المصدر نفسه، ص583).

وبمقارنته بحضارات العصور الوسطى يقول: *"إنهم أرقى من جميع أمم الغرب التي عاشت قبل عصر النهضة أخلاقاً وثقافة، فلم تعرف جامعات القرون الوسطى، في قرون كثيرة، مصدراً غير مؤلفاتهم ومناهجهم، وكانت أخلاقهم أفضل من أخلاق أجدادنا بمراحل"* ص 639.

ويتطرقُ إلى ذكر أسباب ضعف الحضارة العربية ومنها أنه "*جرت حضارة العرب، التي أوجدها أتباع محمد، على سنة جميع الحضارات التي ظهرت في الدنيا: نشوء فاعتلاء فهبوط فموت، ومع ما أصاب حضارة العرب من الدثور، كالحضارات التي ظهرت قبلها، لم يمس الزمن دين النبي الذي له من النفوذ ما له في الماضي، والذي لا يزال ذا سلطان كبير على النفوس، مع أنَّ الأديان الأخرى التي هي أقدم منه تخسر كل يوم شيئاً من قوتها"* (المصدر نفسه ص 132-133).

ويرى بأنَّ الأمم التي دخلت تحت لواء الحضارة العربية تمدَّنت حيث: *"في عبقرية المسلمين هذه ليست مما يقف أمام سلطان النقد عندما يُعْلَم أنَّ التمدُّنَ اللامع حلَّ بالبلاد*

التي خَضَعت لأتباع الرسول محل الهمجية، وأنَّ النشاطَ الذي يحفز الإنسان إلى التقدم لم يكن قويّاً في أمةٍ مثلَ قوته في العرب". (المصدر نفسه، ص 329).

ويدعوا القارئ أن يتصفح صور هذا الكتاب، *"ليعلم قيمة آثار العرب الفنية العظيمة وقوةَ الإبداع فيها، وقد استوقفت هذه الآثار أنظار جميع وارثي العرب، ولم يفعل الشرق منذ ظهور العرب على مسرح العالم غير تقليدها كما قلَّد الغرب الأغارقةَ والرومان منذ قرون حتى الزمن الحاضر"*. (المصدر نفسه، ص 519).

ويوجز ما كانت عليه هذه الحضارة بما استقته من سابقيها ومن التحق بها طوعاً، *"أنَّ العرب استطاعوا أن يبدعوا حضارةً جديدة مستعينين بما استعاروا من الفرس واليونان والرومان، وأنَّ حضارةَ العرب كان لها من المناعة ما استطاعت أن تهيمن به على البرابرة الذين حاولوا هدمها، وقد ظهر لنا أنَّ جميعَ أمم الشرق الكثيرة التي ساعدت على قهر العرب، ومنها الترك، أعانت بلا استثناء على نشر نفوذ العرب، وأنَّ أمماً قديمة قدم العالم، كالمصريين والهنود، اعتنقت ما جاءها به العرب أو ورثتهم من الحضارة والدين واللغة"*. (المصدر نفسه، ص 196).

رده على بعض التهم الملصقة بالعرب: يرد لوبون جحود الكتَّاب الأوربيين لفضل العرب على أوروبا بتأثير ثقافي بغيض متأصل، وغير منصف لدى الغرب، حيث تكرست: *"بفعل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة: إنَّ اليونان واللاتين وحدهم منبع العلوم والآداب في الزمن الماضي"*. (المصدر نفسه، ص600).

ويدافع لوبون عن بعض التهم الملصقة بالعرب مثال، إحراق عمرو بن العاص لمكتبة الإسكندرية عند فتحه لمصر: *"وأمَّا إحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم، فمن الأعمال الهمجية التي تأباها عادات العرب، والتي تجعل المرء يسأل: كيف جازت هذه القصة على بعض العلماء الأعلام زمناً طويلاً؟ وهذه القصة دُحضت في زماننا فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها، ولا شيء أسهل من أن نثبت بما لدينا من الأدلة الواضحة أنَّ النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين في الإسكندرية قبل الفتح العربي بعناية كالتي هدموا بها التماثيل ولم يبقَ منها ما يُحرق.* (المصدر نفسه، ص225).

بل يؤكد أنَّ الفاعلَ الحقيقي *"لما أصبحت النصرانية دين الدولة الرسمي أمر القيصر النصراني ثيودوز، لا*

الخليفة عمر بن الخطاب، بإبادة معابدها وتماثيلها وكتبها الوثنية كما ذكرنا ذلك آنفاً. (المصدر نفسه، ص 226).

وفي جانبٍ آخر يضيف : *"وقضى أعداء الإسلام من المؤرخين العجب من سرعةِ انتشار القرآن العظيمة فعزَوها إلى ما زعموه من تَحَلُّل محمد وبطشه، ويسهل علينا أن نثبت أنَّ هذه المزاعم لا تقوم على أساس، فنقول: إنَّ مَن يقرأ القرآن يجد فيه ما في الأديان الأخرى من الصرامة، وإنَّ ما أباحه القرآن من تعدد الزوجات لم يكن غريبًا على الشعوب المسلمة التي عَرَفته قبل ظهور محمد، وإنَّ هذه الشعوب لم تجد نفعًا جديدًا في القرآن لهذا السبب".* (المصدر نفسه، ص133).

المرأة في الإسلام : يتطرق لوبون لمسألة المرأة لدى المسلمين، وما يرد في كتابات الغربيين ونحوهم حول قضية المرأة، وأنها مرتبطة لدى الرجل العربي بنظرة دونية وتعدد الزوجات، الخ، فيقول" *إنَّ الأوروبيين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسية وما اقتضته من احترام المرأة، والإسلام إذن لا النصرانية هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه.* (المصدر نفسه، ص 416).

ويذكر رؤية الشرائع الأخرى للمرأة *"بالدونية كالهندوسية واليونانية والرومانية .."*. (المصدر نفسه، ص 420).

احترام الديانات الأخرى: يعرض لوبون لنقطة مهمة، وهي احترام دين الآخر، ويورد في أكثر من موطن من كتابه أمثلة على ذلك، ويشير هنا إلى التسامح الذي كان عليه مسلمو الصين حينئذٍ، *"ونشأ عما فُطِر عليه مسلمو الصين من التسامح والروح الحرة واحترامهم عادات الصين وشرائعها ومعتقداتها أن يتمتعوا بما للصينيين من الحقوق، وأن يكون منهم حكام وقواد ومقربون من الإمبراطور"* ، (المصدر نفسه، ص 88).

ويتأسف على *"أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الإحسان بين الأمم، واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة"* ، (المصدر نفسه، ص 138).

وفي مصر يذكر أنَّ عمرو بن العاص عرض على أهل مصر: "حرية دينية تامة..."، (المصدر نفسه، ص 144).

ويقول عن إسبانيا: *"وتُعدُّ كنائس النصارى الكثيرة التي بنوها أيام الحكم العربي من الأدلة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم"*. (المصدر نفسه، ص 291).

الجزيرة العربية: لقد تطرق للجزيرة العربية في ثنايا كتابه بشكلٍ يرفد بعض استشهاداته عند الحاجة. تحدث عن الجزيرة العربية قبل البعثة وبأنه: *"كان للعرب قبل ظهور محمد آداب ناضجة ولغة راقية، وأنهم كانوا ذوي صلات تجارية بأرقى أمم العالم منذ القدم، فاستطاعوا في أقل من مائة سنة أن يقيموا حضارة من أنضر الحضارات التي عرفها التاريخ"*، (المصدر نفسه، ص92). *ويضيف: "استطاعت أممٌ كثيرة غير العرب أن تهدمَ دولاً عظيمة، ولكنها لم تقدر مثلهم أن تبدع حضارة، لما لم يكن عندها ما عند العرب من ثقافة سابقة كافية"* (المصدر نفسه، ص 92).

ويرى لوبون بأنه كان للعرب حضارة قبل مجيء النبي محمد ﷺ، وأنَّ *"الآداب واللغة من الأمور التي لا تأتي عفواً، وهي تُتَّخذ دليلاً على ماضٍ طويل، وينشأ عن اتصال أمة بأرقى الأمم اقتباسُها لِمَا عند هذه الأمم الراقية من التمدن إذا كانت أهلاً لذلك"*. (المصدر نفسه، ص 92)، ونحن نعتقد بذلك فالله اختار أن يبعثَ نبيه لأمة ذات بلاغة وحضارة، وتلك معجزة أن يبدلهم عن دياناتهم لديانة التوحيد.

لا شك بأنني أقف حائراً عند بعض الوقفات للسيد لوبون، ولكن لا أجزم بمصداقيتها من عدمه، ذلك أنني

أحكم على ذلك من خلال الزمن الذي عايشه المؤلف، وقد يكون فيه شيء مما ذكر في زمن تأليفه لكتاب حضارة العرب، على سبيل المثال: نقله لكلام ليدي بلنت في رحلتها إلى بلاد نجد 1878م التي ذكرت بأنَّ حاكم سكاكا النجدية زنجي أسود، والسؤال هل سكاكا مدينة نجدية؟ (المصدر نفسه، ص 70)، أو فيما أورده في الحواشي (ص 90) خصوصاً نظرة العربي لليهودي والتي أرى فيها مبالغة.

ونرى أنه عندما تكلم عن الوهابية التي ظهرت في نجد يقول بأنها فرقةٌ دينيةٌ في الإسلام جديدة خلاف السنة والشيعة، وهذا يعني أنَّ عدمَ زيارته للجزيرة العربية قادته لأفكار غير دقيقة، (انظر المصدر نفسه، ص430).

إلاّ أنه في موطن آخر امتدح الدولة الوهابية (يقصد السعودية) في نجد فقال: *"ولا ريب في أنهم سينتصرون، بفضل اتحادهم المتين، على أعدائهم الذين أضعفهم انقسامهم، وأنَّ سيادة القسم الأعظم من جزيرة العرب ستكون لدولتهم الوهابية"* ، *(المصدر نفسه، ص 80)*، وفي ظني أنَّ لوبون بهذا القول قد استقرأ قيام الدولة السعودية الثالثة، ويؤكد ذلك بقوله: *"وعلى ما أصاب الوهابيين من الانهزام أمام المصريين في سنة 1810 وسنة 1818، لم تلبث*

الدولة الوهابية أن أعيد بنيانها، ويقيم أميرها عادةً في مدينة الرياض العظيمة الشأن". (المصدر نفسه، 52).

رأي الباحثين العرب حوله: بالرغم مما ورد فلا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ بعضَ الباحثين العرب والمسلمين وجهوا انتقادات إلى آرائه في موضوعي الوحي والنبوة والقرآن، وغيرها من العقائد الإيمانية الأساسية في الإسلام. وترجع أسباب هذا النقد إلى اختلاف العقليتين العلمية واللاهوتية[1]. العقلية العلمية التي يتكلم بها لوبون تستمد يقينياتها من المشاهدة العينية والتجربة الحسية، بينما العقلية اللاهوتية التي تكلم بها النقاد تستمد يقينياتها من عالم الغيب والميتافيزيقا[2].

أخيراً كتابه "حضارة العرب": يُعدُّ هذا الكتاب من أعظم الكتب التي تناولت الحضارة العربية من حيث التحليل المنهجي، من خلال تركيزه على الأحداث التاريخية والمعلومات المهمة، مما يعطي صورةً واضحةً ومركزةً عن حال العرب فيما بين القرنين السابع والخامس عشر الميلاديين. ومهما يكن، فإنَّ لكتاب «حضارة العرب»

(1) وهذا المبدأ ينطبق تماماً على أولئك المستشرقين الذين لم ينصفوا الحضارة العربية والإسلامية حيث كان البعض ينظر إلى جوانبها بنظرة لاهوتية، وبذلك وردت أفكاره غير منصفة ولا موضوعية.

(2) (حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013).

قيمة تاريخية وعلمية عرض فيه الموضوعات التي برع فيها العرب والمسلمون، وكانت أساس حضارتهم العظيمة كالكيمياء والفيزياء والرياضيات والفلك والزراعة والصناعة والطب والهندسة وغيرها، ولم يأتِ كتاب لوبون فقط لتذكير الغرب والشرق بتلك الحضارة العظيمة التي أثرت العالم في حينه، بل ليبرهن على أنَّ حضارةً كانت هذه شواهدها الماثلة فإنَّ سرَّ قوتها في دينها الإسلام: "*دخلت دولة العرب في ذمة التاريخ، بيدَ أنَّ الدين، الذي كان سبباً في قيامها لا يزال ينتشر، ويسيطر ظلُّ النبي من قبره على ملايين المؤمنين الذين يسكنون أقطار إفريقية وآسية الواسعة الواقعة بين مراكش والصين والبحر المتوسط وخط الاستواء*"، (المصدر نفسه، ص 445).

تمجيده للقرآن الكريم في أكثر من موضع، فيرى بأنَّ القرآن الكريم من مصادر قوة العرب وقد أفرد له الفصل الثاني من الباب الثاني، انظر ص 121 وما بعده. يشير إلى الأخلاق في القرآن، "*إنَّ أصولَ الأخلاق في القرآن عالية علو ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها*". (المصدر نفسه، ص445).

ويشير إلى **عدلِ الإسلام وسهولته**: أنَّ القوةَ في فتوحات

العرب لم تكن السبب في انتشار القرآن: *"وسيرى القارئ، حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم، أنَّ القوةَ لم تكن عاملًا في انتشار القرآن، فقد ترك العربُ المغلوبين أحرارًا في أديانهم، فإذا حدثَ أن اعتنق بعضُ النصارى الإسلام، واتخذوا العربية لغة لهم؛ فذلك لما رَأَوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثلَه من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل"*، (المصدر نفسه، ص 134).

"وللإسلام وحده أن يباهيَ بأنه أولُ دين أدخل التوحيد إلى العالم" ، (المصدر نفسه، ص 131).

امتداحه للرسول محمد ﷺ : على الرغم من استخدامه لمصطلحات ليست مقبولة للمسلم، ولكن مرد ذلك كما أشرنا سابقاً عقيدته العلمية لا الدينية. لكن قلَّ أن نجدَ مفكراً علمانياً يمتدح أو يتطرق لشخصية الرسول محمد عليه الصلاة والسلام بطريقةٍ منصفةٍ وعلميةٍ، وهذا يدل على حيادية المؤلف، نورد هنا إحدى عباراته البارعة عن الرسول، *"إذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد [ﷺ] من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمدًا [ﷺ] مع أنَّ التعصبَ الديني أعمى*

بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله." (المصدر نفسه، ص 115).

ويختم كتابه بالقول : *"لقد تمَّ الكتاب، ولنُلخِّصْه في بضع كلمات، فنقول: إنَّ الأممَ التي فاقت العرب تمدنًا قليلة إلى الغاية، وإننا لا نذكر أمةً، كالعرب، حققت من المبتكرات العظيمة في وقتٍ قصيرٍ مثل ما حققوا، وإنَّ العربَ أقاموا دينًا من أقوى الأديان التي سادت العالم، أقاموا دينًا لا يزال تأثيره أشد حيويةً مما لأي دينٍ آخر، وإنهم أنشؤوا، من الناحية السياسية، دولةً من أعظم الدول التي عرفها التاريخ، وإنهم مدَّنوا أوربة ثقافةً وأخلاقًا، فالعروق التي سَمَتْ سموَّ العرب وهبطت هبوطهم نادرةٌ، ولم يظهر، كالعرب، عرقٌ يصلح أن يكون مثالًا بارزًا لتأثير العوامل التي تُهيمن على قيام الدول وعظمتها وانحطاطها".* (المصدر نفسه، ص 642).

أخيراً يبرز لوبون جانباً مهماً يميز الحضارة العربية عن غيرها بالقول: *"إنَّ الأمم التي كانت لها سيادة العالم، كالآشوريين والفرس والمصريين والأغارقة والرومان، توارت تحت أعفار الدهر ولم تنزل لنا غير أطلال دارسة، وعادت أديانها ولغاتها وفنونها لا تكون سوى ذكريات،*

والعرب وإن توارروا أيضاً، لم تزل عناصر حضارتهم، وإن شئت فقل: ديانتهم ولغتهم وفنونهم، حيَّة.." (المصدر نفسه، ص 23).

في الواقع، لم يكن الأوروبيون يعرفون شيئاً عن حقيقة تعاليم الإسلام وشرائعه الفقهية التي تتناول ما ورد في القرآن من نظم للفكر والممارسة، بل طُرد بعضهم بمجرد إشادته بالإسلام وسط أجواء معادية للعرب والمسلمين[1].

أصدر لوبون كتابه الرائع كتاب «حضارة العرب» متصدياً فيه لتلك الطروحات العنصرية بروح علمية محايدة نجدها في كل مؤلفاته، إنَّ لهذا الكتاب قيمة تاريخية وعلمية يجب المحافظة عليها ونشرها، ليس بين الأجيال العربية والإسلامية المعاصرة كشاهد على ما أنجزه أجدادهم فحسب، بل للغربي الباحث عن الحقيقة.

(1) وليم وستن، خليفة نيوتن في جامعة كمبردج، طرد من الجامعة عام 1709 لإشادته بالإسلام

6 مختارات مما كتب عنه من قبل باحثين معتبرين

كان تأثير لوبون غير مباشر في الفترة ما بين الحربين العالميتين، خصوصاً في مجال علم النفس الجماعي وفي التيار الناقد لدراسة الظواهر الاجتماعية.

إنَّ القراءةَ الشاملة لأفكار بعض السياسيين - خصوصاً ما قبل الحربين العالميتين وما بعدهما - تشير إلى أنَّ أفكار لوبون انتشرت لدى حركات سياسية في أوروبا. سنورد لاحقاً بعض الاستشهادات لذلك، وبالتالي ستظهر بعض ما قيل عنه.

قبل سرد بعض ما قيل عنه من قبل مفكرين وباحثين، نود الإشارة إلى أن لوبون تعرض -في نظري- لنوع من التهميش نتيجة[1] لبعض المعطيات، ومنها:

أولاً: رأيه الواضح بعدم وجود دور لليهود في الحضارة الإنسانية.

ثانياً: عدم خوضه في القضايا السياسية، ومنها قضية النقيب اليهودي درفوس Dreyfus[2].

(1) ذكر بعض الباحثين إلى أن تبني قادة بعض الأحزاب المتطرفة لأفكاره أدت إلى تحاشي معظم مفكري عصره وما تلاه

(2) http://www.larousse.fr/encyclopedie/divers/affaire_Dreyfus/117099

ثالثاً : امتداحه للحضارة العربية، وظهور كتابه "حضارة العرب" في فترة نزوع العنصرية ضد العرب، ونكران دورهم من قبل العديد من مفكري أوروبا حينئذٍ، بالتوازي مع نشوء فترة الاستعمار.

رابعاً : تبني أفكاره من قبل كلٍّ من الفاشيين في إيطاليا والنازيين في ألمانيا، وتيارات يمينية أخرى في أوروبا، مما جعل البعض يقول عن لوبون بأنه فاشي ونازي، (انظر الفقرة اللاحقة حول هذه المسألة في: سبب إهمال لوبون من قبل علماء الاجتماع المعاصرين).

خامساً : لا يوجد له أتباع على المستوى الفكري لمتابعة أفكاره ونشرها ولاسيما بعد وفاة آخر تلاميذه الأكثر إخلاصًا (غوتييه عام 1960، وماري بونابرت في عام 1962)، إلَّا أنَّ كتابه سيكولوجية الجماهير أعيد إصداره بانتظام، ولا زال يتمتع بسمعة علمية عالمية كبيرة إلى الآن، خصوصاً منذ عام 1963 ضمن سلسلة بوف PUF ، إلى جانب كتاب "الحضارة العربية"، وإن بنسبة أقل، حيث أعيد إصداره في الأعوام (1969 ، 1984، 1996).

تلك المعطيات السابقة وغيرها كانت من أسباب عدم الاهتمام النسبي بأعمال لوبون خصوصاً أعماله في

الحضارات، وعدم الاعتراف بأسبقيته لبعض المفاهيم العلمية كما حدث مع أنشتاين.

في الواقع، أثّرت بعضُ مبادئ وأفكار لوبون تأثيراً عريضاً على الثورات السياسية في العالم لكلا المعسكرين المتناقضين: هتلر -موسوليني- ماو من جهة[1] وروزفلت[2] - تشرشل ديجول من جهة أخرى.. خصوصاً ما ورد من أفكار في كتابه "سيكولوجية الجماهير". وسوف نعرض لبعض الاستشهادات حول ذلك في الفقرات اللاحقة.

تظهر في ألمانيا على سبيل المثال هوية أطروحات الدعاية الموجودة في كلٍّ من كتاب"كفاحي" من جهة وكتاب "علم نفس الجماهير" من جهة أخرى. يقول ألفريد أنشتاين: *"وجود أعمال شعبية على سيكولوجية الجماهير في مكتبة هتلر الخاصة يوضح أنَّ لوبون لم يعد يحتكر هذا الإنتاج بعد الحرب"*.[3]

(1) http://www.lepoint.fr/editos-du-point/alain-duhamel/gustave-le-bon-visionnaire-meconnu-07-04-2011-1316647_74.php

(2) C. Rouvier, op. cit., p.17-18.)

(3) Alfred Stein, « Adolf Hitler und Gustave Le Bon. Der Meister der Massen- bewegung und sein Lehrer », Geschichte in Wissenschaft und Unterricht, 6, 1955, p. 362-368

نشير أيضاً إلى أنَّ نفوذه الفكري شمل سياسيين آخرين أمثال، (ديغول de Gaulle [1] بنديكت Marpeau، تشرشل[2] اللورد مونتباتن، وينستون، ثيودور روزفلت.[3] أشار وزير ستالين، بوريس بازهانوف، في مذكراته بالتالي "وعلم النفس المجموعة كما كتابك المفضل لدى لينين". وقالت ماريا إغناتيفنا جلاسر، وكانت أمينة خاصة لـ لينين: "*أردت أن أعرف أي الكتب التي استخدمها لينين أكثر من غيرها. أخبرني جلاسر أن علم نفس الجماهير لغوستاف ليبون كان بينهم. ويبقى ما إذا كان لينين استخدمه كمفتاح لا غنى عنه للتأثير على الجماهير*"[4].

وقبل الإشارة إلى ما ورد بحق لوبون من علماء ومفكرين، نود التطرق إلى جانب مهم، وهو أن **سبب إهمال لوبون من قبل علماء الاجتماع المعاصرين** مرده إلى

(1) Benoît Marpeau, entrée « Le Bon », in Claire Andrieux, Philippe Braud, Guillaume Piketty (dir.), Dictionnaire de Gaulle. Paris, R. Laffont, 2006, p. 671.

(2) Souvenir rapporté par Lord Mountbatten, Fourth Winston Churchill memorial lecture, Université de Berne, mars 1970

(3)Gustave Le Bon, un mythe du xxe siècle؟ Par Olivier Bosc, Mil neuf cent. Revue d'histoire intellectuelle, 2010/1 (n° 28), Pages 101 - 120

(4) Boris Bajanov, Bajanov révèle Staline, Paris, Gallimard, 1979, p. 107.

عدة عوامل:

- كان ضد الثورة والفكر الاشتراكي في ذلك الوقت.
- استخدم طرفي السياسة من يمين أو يسار لأفكار لوبون في دعاياتها للجماهير، دون أن تعترف بذلك حتى لا تخسرهم.
- نعته بالفاشي نتيجة تبني قيادات التيارات السياسية، خصوصاً اليسارية الفاشية لأفكاره دون أن يكون كذلك.

وبالرغم أنَّ هناك علماء آخرين التقوا أو رددوا أفكار لوبون مثل، فرويد، إلَّا أنَّ قدر لوبون أن يقال عنه بأنه فاشي ونازي، وفي ذلك تجنٍّ كبير، فأفكاره التي تبناها كلٌّ من الفاشيين في إيطاليا والنازيين في ألمانيا قد استخدمتها تيارات يمينية أخرى في أوروبا، ولكن سوء حظ لوبون، كما أشار هاشم صالح في مقدمته الرائعة لترجمته كتاب سيكولوجية الجماهير" يعود إلى أنَّ هتلر وموسوليني كانا من قرائه! وبالتالي أصبحت إدانة صاحب سيكولوجية الجماهير سهلة حتى ولو كنا نعرف عن طريق كتاباته أنه يفضل النظام الديمقراطي بكلِّ عيوبه ونواقصه على الديكتاتوريات بما

فيها الديكتاتورية التي يحسبونها عليه: الفاشية"[1].

وفي سياقٍ آخر حول عنصرية لوبون، فإنني أتفق مع هاشم صالح بأنَّ لوبون ليس عنصرياً بالمعنى المتطرف للكلمة، ولكنه عنصريٌّ بالمعنى الثقافي والتاريخي، أي بالمعنى الوضعي والعلوي الذي ساد القرن التاسع عشر كله" (سيكولوجية الجماهير، ص 28).

وتأكيداً على عدم عنصريته بما ورد له في كتاباته حول ذلك، نذكر هنا قوله في كتاب حضارة العرب:

"هل يعني ذلك أنَّ الشعوب نصف المتحضرة أو البربرية لا تحب هي الأخرى أيضاً أن ترتفع إلى مستوى الحضارة الأوروبية؟ هذه ليست عقيدتي على الإطلاق. بل إني أعتقد على العكس أنها سوف تتوصل إلى ذلك يوماً ما. ولكنها لن تتوصل إليه إلَّا بعد أن تكون قد غيرت الدرجات المتتالية التي تفصلها عنها واحدة بعد الأخرى وليس بقفزة واحدة" (حضارة العرب، ص 14).

(1) غوستاف لو بون، سيكولوجية الجماهير، (ترجمة هاشم صالح)، دار الساقي، 1991، ص 25 .

ونورد في التالي ما قيل عنه من قبل بعض المفكرين :

سيغموند فرويد : يُعدُّ كتاب "سيكولوجيا الجماهير" من أهمِّ الكُتب في القرن العشرين. ومن بين من أشادوا به سيغموند فرويد Sigmund Freud[1] نفسه الذي على الرغم من تحفظاته أشاد بأهمية هذا المؤلف في كتابه اللاشعور الجمعي والأنا، واعتبر أنَّ اهتمام لوبون بدور اللاشعور على الحياة النفسية للأفراد يجعل نظريته النفسية تكاد تقترب من نظريته، أي نظرية فرويد. وبالرغم أنَّ فرويد يعتمد على قراءة نقدية لعلم نفس الجماهير، فقد أشاد بإسهام لوبون ويذكر أعماله، *"بتركيزه على دور الوعي في الحياة النفسية، فإنَّ سيكولوجية السيد لوبون تقترب كثيراً من سيكولوجيتنا"*[2] *بما في ذلك "تغيير الأنا عندما يكون ضمن مجموعة يتصرف"* ، ويكتب *"سأعطي الكلمة للسيد لوبون"*[3]...

موسوليني : المقابلة الأولى مع موسوليني، بتاريخ 9 يونيو 1926، من قبل صحفي فرنسي في العلم والحياة، بيير شانلين Pierre Chanlaine، ونشرت أيضاً في كوريير ديلا سيرا يوم 12 يونيو. قال موسوليني: *"أعرف أنَّ العلم والحياة*

(1) Freud, « Psychologie collective et analyse du moi », 1921 p.16

(2) Freud S., Essais de Psychanalyse, Payot, Paris, 1972, p. 89

(3) المصدر نفسه.

نشرت مقابلات مع شخصيات أعتبرها الأكثر أهمية والتي، في رأيي، من بين أولئك الذين تكرمهم الإنسانية أكثر: غوستاف لوبون، على سبيل المثال. لقد قرأت عمل غوستاف لوبون كله؛ وأنا لا أعرف كم مرة قرأت علم نفس الجماهير. إنه عمل رأسمالي، أعود إليه في كثير من الأحيان." بنيتو موسوليني، أوبرا أمنيا، إدواردو و *Duilio Susmel* ....[1]

يفضل موسوليني أن يشير إلى Le Bon بدلاً من المفهوم الإيطالي لدى كل من Sighele، Sergi و Rossi . في برقية بتاريخ 6 أبريل 1931، يكتب:

"أجيب على رسالتك. الديمقراطية هي النظام الذي يعطي أو يسعى لإعطاء الناس وهم السيادة. اختلفت أدوات هذا الوهم من وقت لآخر ومن الناس، لكن هذا الأساس والغرض لم يختلفا أبداً. هذا رأيي. أغتنم هذه الفرصة لأرسل لك تحياتي القلبية". ب. موسوليني، أوبرا أومنيا، مرجع سابق. cit.، XXV، p. 262[2]

(1) Benito Mussolini, Opera omnia, Edoardo et Duilio Susmel (eds.), Florence, La Fenice, 1957, vol. XXII, p. 156.

(2) Benito Mussolini, Opera omnia, Edoardo et Duilio Susmel (eds.), Florence, La Fenice, 1957, vol. XXII,p 262

روزفلت : وعن مقابلة لوبون للرئيس الأمريكي روزفلت، يقول لوبون:

"أتيحت لي الفرصة لمقابلته قبل شهرين فقط من الحرب، في مأدبة غداء دعاه إليها له صديقي البارز، Hanotaux، وزير الشؤون الخارجية السابق. وكان السيد روزفلت قد اختار بنفسه الضيوف الذين رغبوا في رؤيته إلى جانبه. [...] بعد أن تحدثت عن دور الأفكار في توجيه القادة العظماء للشعوب، قال لي روزفلت، وهو يحدق في نظري المخترق، بصوت جدي: - إنه كتابٌ صغير لم يتركني أبداً. في جميع رحلاتي والذين ظلوا دائمًا على مائدتي خلال فترة رئاستي. هذا الكتاب هو كتابك: القوانين النفسية لتطور الشعوب " [1].

شارل ديغول : يقتبس شارل ديغول في كتابه "رجل الشخصية" (حافة السيف Le Fil de l'épée)، جوهر رسالة لوبون، باعتبارها تميل بشكلٍ خاص إلى جعل الاقتراح كحقيقة أولية وغير قابلة للاختزال، وتشرح كلَّ شيء عن أسرار الهيمنة. وباعتبار لوبون مؤسس علم نفس الجماهير،

(1) Gustave Le Bon, Le Déséquilibre du Monde, page 226, Flammarion

فإنه ينوي الاستفادة من الأزمة التي تعرفها السلطة لفهم الجوهر. تتطابقُ هذه الأزمة مع تطور يتكيف معه مبدأ السلطة مع الحداثة. إنَّ تشخيص المؤلفين هو نفسه: فالسلطةُ التقليدية المرتبطة بالوظيفة، على وشك أن تحل محلها المقترحات البحتة، التي تسمح للقادة بإخضاع الجماهير بالقوة الوحيدة لشخصيتهم، ومستقلة أكثر فأكثر عن الأطر القائمة. "بالنسبة إلى ديغول كما هو الحال بالنسبة إلى لوبون، سحر المجتمع في كلمة واحدة: هيبة، انظر الموقع[1] .

روبرت ميشيلز : تأثر روبرت ميشيلز Robert Michels، مؤلف كتاب الأحزاب السياسية[2]، بشكلٍ كبيرٍ من خلال علم النفس الجماعي لـ لوبون..

ميشيلز على دراية جيدة بعمل لوبون: يمكن العثور على العديد من الاقتباسات في أعماله، ولا سيما في الأحزاب السياسية. في مكانٍ آخر يبرز تقارب أطروحات لوبون حول أهمية المشاعر واللاعقلانية وعقيدة البقايا في

(1) http://www.cairn.info/revue-raisons-politiques-2007-2-page-217.htm

(2) Les partis politiques, essai sur les tendances oligarchiques des démocraties, Flammarion, Bibliothèque de philosophie scientifique (1914)

باريتو. يعترف ميشيل، مثلما هو الحال بالنسبة للوبون، الثابت للطبيعة البشرية التي تخلق "لامبالاة الحشود وحاجتها إلى أن تسترشد" تعارض "التعطش غير المحدود لقوة القادة"[1].

أينشتاين : يشير ألكسندر موتى Alexandre Moatti[2] في كتابه عن أينشتاين في إطار ندوته "المقاربة التاريخية للقياس" إلى ادعاء لوبون للأسبقية على أينشتاين من خلال تقييم طريقته ومساهمته، والاستخدام المتكرر للحدس، بعدم وجود نتائج للوبون يمكن التحقق منها.

ويضيف "إنَّ هدفَ هذه المؤتمرات هو، في هذا السياق، تقديم وتحليل التناقضات بجميع أنواعها - العلمية والفلسفية والأيديولوجية - التي تبلورت ضد الفيزياء الجديدة في أوائل القرن العشرين، وعلى وجه الخصوص ضد النسبية ألكسندر موتى، عرض الندوة "النهج ...."

بيد أن هناك من يؤكد على مساهمة لوبون في ذلك قبل آينشتاين ، من خلال ما ورد في أعماله مثل كتاب "تطور

(1) Yvon Thiec,"Gustave Le Bon, prophète de l'irrationalisme de masse », Revue française de sociologie., XXII, 1981, 409-428

(2) Alexandre Moatti, présentation du séminaire «Approche historique de l'alterscience », Paris, EHESS, 2008-2009.

المواد" أو كتاب "تطور القوى"، حيث صاغ لوبون مبدأ قوانين النسبية، وواقعية الاكتشاف، مما مكنت أينشتاين فيما بعد من إدراكه، وبالتالي تنسب إليه خطأ.[1]

شومبيتر Schumpeter : "إنَّ أهمية اللاعقلانية في السياسة والتركيز عليها يُعزى دائماً لغوستاف لوبون. فهو مؤسس علم نفس الجماهير، أو على الأقل منظره الأول، وذلك عندما استخلص وإن بنوع من التضخيم والمبالغة قوانين السلوك البشري المتأثر بالجمهور أو المنخرط فيه. فقد كشف لنا هذا المفكر أشياء مشؤومة أو مخفية، ولكن أحداً لا يريد مواجهتها وجهاً لوجه. وقد وجَّه في الوقت نفسه ضربة موجعة لذلك التصور عن الطبيعة البشرية، الذي ترتكز عليه النظرية الكلاسيكية للديموقراطية والأسطورة الديمقراطية للثورات"[2].

هوركهايمرHorkheimer : بعد تجارب العقود الماضية أي الحرب العالمية الثانية، ينبغي أن نعترف بأنَّ أطروحات لوبون قد تحققت إلى درجة مدهشة، على الأقل بطريقة

(1) Formule empruntée à Alexandre Moatti, Einstein. Un siècle contre lui, Paris, Odile Jacob, 2007

(2) Schumpeter J. capitalisme, socialisme, et démocratie, Paris, Payot, 1961, p. 386

سطحية، حتى ضمن إطار الحضارة التكنولوجية الحديثة التي كنا نتوقع أن نجدَ فيها جماهير أكثر استنارة"[1].

إذاً لعبت الأفكار الواردة في سيكولوجية الجماهير دوراً مهماً في بداية القرن العشرين. لقد كان ممارسو انظام الشمولي مثل: موسوليني، هتلر، ستالين وماو، يستمدون أفكارهم (أو بشكل أكثر دقة، تحويل المبادئ) لغوستاف لوبون كما هو الحال لدى العديد من الجمهوريين مثل: روزفلت Roosevelt، كليمنصو Clemenceau، بوانكيه Poincaré، تشرشل Churchill، ديغول de Gaulle، إلخ. – مستوحاة من لوبون أيضاً.[2]

أخيراً البروفسور **سيرج موسكوفتشي** Moscovici كان أول من حاول إعادة الاعتبار إلى أفكار لوبون في كتابه «عصر الجماهير» (1981)، وتساءل: كيف يمكن تجاهل رجل يعد بين العشرة أو الخمسة عشر الذين أثّرت أفكارهم من وجهة نظر اجتماعية تأثيراً حاسماً في مجمل القرن العشرين؟

(1) Horkheimer M. & Adorno t., aspects of sociology, heinemann, London,1973, p 75

(2) in Stéphane Courtois, Les Logiques totalitaires en Europe, Éditions du Rocher, 2006, chapitre VIII page 211, chapitre IX page 223.

يقول عالم الاجتماع **سيرج موسكوفتشي** : "وبين عشية وضحاها أصبح لوبون الأستاذ الفكري لمرحلة كاملة بأسرها. وقد حافظ على هذه المكانة حتى نهاية حياته المديدة". ولما كان مقيماً في منزله لا يبرحه، فقد راحت تتعاقب على زيارته كبريات شخصيات العصر من علمية وفكرية وسياسية، كعالم الرياضيات هنري بوانكاريه، والفيلسوف بيرغسون، والشاعر بول فاليري، ثم من رجال السياسة رئيس الجمهورية ريمون بوانكاريه، والرئيس الأمريكي تيودور روزفلت. وكانوا يتلقون بكلِّ جدية نصائحه في مجال السياسة والمجتمع. والواقع أنَّ انتشار نظريته قد بلغ أوجها في العشرينات من هذا القرن. ففي ذلك الوقت راح العلم الجديد "علم نفسية الجماهير" يجذب بقوة النخبة الديمقراطية التي تجد فيه الآلة المفهومية أو العلمية التي تؤكد لها خوفها العميق من الجماهير. ولكنها في ذات الوقت تقدم لها مجموعة من القواعد التي تساعدها على التحكم بعنف الجماهير والسيطرة عليها"، الجميع متفقون على أنَّ كتاب "سيكولوجية الجماهير" ومجمل أعمال غوستاف لوبون تشكل نجاحاً منقطع النظير في المكتبات، وأنها إحدى أكبر النجاحات العلمية في كل

العصور. وهذا الكتاب هو القاعدة التي دشن ما يدعى اليوم بعلم النفس الاجتماعي أو الجماعي.

ويشير موسكوفتشي إلى أن هناك لغزاً حول تهميش السيد لوبون في الأوساط الفرنسية، حيث لم تشر الأعمال المنشورة بالفرنسية أبدًا إلى تأثيره على علوم المجتمع، في حين أن لديها اهتماماً مفرطاً بالعلماء الصغار والمدارس الفكرية على نطاق واسع وغير محدد. ويتساءل: ما هو سبب هذا التوجه غير العادل؟ وكيف يمكن تجاهل رجل من بين العشرة أو الخمسة عشر الذين كانت أفكارهم، من وجهة نظر العلوم الاجتماعية، قد اتخذت إجراءات حاسمة في القرن العشرين؟ ويشير البرفيسور موسكوفتشي أيضاً بصراحة: لا يوجد عالم فرنسي كان له تأثير مساوٍ لـ Le Bon أو لديه كتب مكتوبة ذات صدى مماثل، باستثناء سوريل Sorel، وتوكفييل Tocqueville، انظر موسكوفتشي.[1]

ونوجز لهذا الفصل بأنَّ الأفكارَ الواردة في علم نفس الحشود لعبت دوراً مهماً في أوائل القرن العشرين. كان السيد غوستاف لوبون واحدًا من أعظم مؤسسي نظريات

(1) Serge Moscovici : L'âge des foules (Fayard) ouvrage remanié en 1985 (Bruxelles, Complexe)

اللاوعي في الوقت الذي كانت فيه نظريات الفعل الجديدة تتشكل. كانت أفكاره حول علم نفس الحشود قد أثرت على النظريات الشمولية التي ظهرت في العشرينيات من القرن العشرين، ويمكن اعتبار ما ورد من أفكار في كتاب كفاحي لأدولف هتلر، بالإضافة إلى الأساليب الستالينية للتعبئة الجماهيرية، مستوحاة من أساليب الدعاية التي تمَّ تحليلها في أعمال غوستاف لوبون. في الواقع، قام لوبون بتحليل هذه الظواهر فقط، والتي يمكن استخدامها فقط للتلاعب الأيديولوجي للحشود كما للوعي بمخاطر التلاعب[1].

استُخدم عمله في علم نفس الحشود في النصف الأول من القرن العشرين من قِبل باحثين في علم الاجتماع الاجتماعي مثل هادلي كانتريل Hadly Cantril وهربرت بلومر Herbert Blumer لوصف ردود الأفعال للجماعات[2]. كذلك استند سيغموند فرويد في علم النفس الجماعي والتحليل الذاتي، الذي نُشر عام 1921، على قراءة نقدية لعمل لوبون[3].

(1) https://www.appl-lachaise.net/appl/article.php3?id_article=1724

(2) https://www.appl-lachaise.net/appl/article.php3?id_article=1724

(3) https://www.appl-lachaise.net/appl/article.php3?id_article=1724

لماذا لم يلتحق بالجامعة للتدريس؟

غالباً ما تمَّ وصف العلاقة بين غوستاف لوبون من جهة والمؤسسة الجامعية وأكاديمية العلوم من جهةٍ أخرى بطريقة شاملة وبسيطة. لقد رفضت الجامعة الإنسان وكتاباته وبقيتا مقفلتين في وجهه حتى وفاته. يشرح ذلك سيرج موسكوفيتشي Serge Moscovici [1]: *"ظلت أبواب الجامعة وحتى أبواب أكاديمية العلوم مغلقة بعناد أمامه. وبالتالي، فإنه في الخارج، خارج الأوساط الرسمية، يعمل بلا كلل مما تعرض بعد وفاته للنسيان على الرغم من الاهتمام المفترض بعمله، وتركيز الدراسة حصريًا على منشوراته، نظرًا لأن وجود هذا الهامش سوف يتمُّ الخلط بينه وبين عمله"*.

لكن المفارقة بأنَّ هذه الجامعة قررت بأن يكون كتابه "سيكولوجية الجماهير" مرجعاً في برامجها.

لقد نُشِرَت في العالم العربي دراسات وتعليقات قليلة عن هذا العالم، بل إنَّ بعض القراءات وضفت أقوال لوبون في سياقات سلبية، بالرغم أنَّ من انتقده لم يقدم عملاً عن

(1) Serge Moscovici, L'Age des foules, nouv. éd., Bruxelles, Éd. Complexe, 1985, p. 76.

الحضارة العربية كما قدمها لوبون. لكن في جانبٍ آخر قام البعض بترجمة بعض أعماله، مثل عادل زعيتر وهاشم صالح، إلى جانب بعض الدراسات، كما لدى محمد كُرد علي، حيث اعتمد في كتابه «الإسلام والحضارة العربية»[1]، على جملة من الاقتباسات «الاستشراقية» عن علماء الغرب ليرد بها على كلٍّ من يحاول الانتقاص أو النيل من الإسلام وحضارته، من بينها ما نقله عن غوستاف لوبون.

(1) محمد كُرد علي، الإسلام والحضارة العربية، مؤسسة هنداوي، 2017

" الحضارة هي شعلة ضوء يتزايد من عصر إلى عصر،
ولقد مرت بذلك الشعوب الأكثر تنوعاً تباعاً "
غوستاف لوبون

خاتمة

في كتابنا هذا حاولنا إعادة اكتشاف شخصية كان لها تأثيرٌ كبيرٌ على أفكار العديد من المؤثرين في العالم، كما كان له نشر علمي متميز ومنصف، خصوصاً عن الحضارة العربية. إنه غوستاف لوبون، ذلك المستشرق الفرنسي الذي كتب عن العرب، كما لم يكتبوا عن أنفسهم.

لوبون، رمز الفترة التي لا يكون فيها التخصص مناسبًا، أو لا تزال علوم الإنسان كتلة. فقد كتب أيضاً العديد من الأعمال المشهورة في علم النفس الاجتماعي، مثل "الحشد: دراسة العقل الجمعي "سيكولوجية الجماهير" وغيرها. أسس مجموعة الفلسفة العلمية في دار Flammarion، ولازالت مستمرة حتى تاريخه، وعقد صالوناً ثقافياً جذب العديد من مفكري وساسة عصره.

انتصر كثيراً للعرب والمسلمين بقوله: «*وذلك أنه كان للمدنية الإسلامية تأثيرٌ عظيمٌ في العالم، وتمَّ لها هذا التأثير بفضل العرب... وبنفوذهم الأدبي هذبوا الشعوب البربرية التي قضت على الإمبراطورية الرومانية، وبتأثيرهم العقلي فتحوا لأوروبا عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية، وهذا ما كانت تجهله، وعلى ذلك كان العرب ممدّنينا وأساتذتنا مدة ستمائة سنة*».

إنَّ لوبون ببساطة كان ينطلق في فرضياته من مبدأ إخضاع العلوم الإنسانية للعلوم الدقيقة كما هو الحال مع نظيره العالم دوركهايم، "*طبق لوبون التحليل العلمي في كتابه حضارة العرب، وسلك في تأليفه لهذا الكتاب كما أشار مترجم الكتاب عادل زعيتر" سلك طريقاً لم يسبقه إليها أحد فجاء جامعاً لعناصر هذه الحضارة وتأثيرها في العالم، شاملاً لعجائبها مفصلاً لعواملها، باحثاً في قيام دولة العرب، وفي أسباب عظمتهم وانحطاطهم، مبتعداً عن أوهام الأوروبيين التقليدية في العرب والإسلام*" ، (المصدر نفسه، ص 12).

لقد أحدث نشر كتابه "حضارة العرب" آنذاك ضجة كبرى في الأوساط العلمية والتبشيرية، واعتبره الباحثون

المحايدون أهم كتاب أوروبي ينصف حضارة العرب والمسلمين بالبراهين القاطعة التي تناقض النظريات العرقية والعنصرية والاستشراقية، السائدة يومئذ في فرنسا والغرب، وفي طليعتها نظريات أرنست رينان، وجوبينو وجبريل هانوتو وغيرهم. ولهذا السبب لم ينظر إليه الأوروبيون نظرة التقدير التي يستحقها، مع أنه من ألمع علماء الاجتماع والتاريخ في القرن التاسع عشر، ومن أعظم المفكرين الذين أنجبتهم فرنسا في ذلك القرن.

لقد تضمن كتاب لوبون "حضارة العرب" جميع الجوانب عن الحضارة العربية بدقة وإبداع، قل ما نجده في كتب مماثلة.

وقبل النهاية، نشير بأنه ليس من الإنصاف رأي البعض ممن انتقد غوستاف لوبون في تناوله لبعض الجوانب للحضارة العربية[1]، فليس من الموضوعية أيضاً أن يتناول الكاتب أي جانب من موضوع ما بمنظور ديني، لقد أنصف الحضارة العربية والإسلامية في جوانب عدة، بينما تجاهلها أو أنكرها غيره من المستشرقين.

(1) http://howiyapress.com/8740-2/

من المتعارف عليه أنَّ الحضارات والمجتمعات لا يحكم عليها أصحابها ومن يسكنها، ولكن يحكم عليها من يزورها ويدرسها. وهذا الكلام ينطبق تماماً على غوستاف لوبون. ولقد تميز أيضاً بأنه كان محللاً للجماهير، ومخترعاً طريقةً معينةً في ممارسة علم النفس الاجتماعي. بل كان مسافراً لا يعرف الكلل للبحث عن أسرار عظمة الحضارات الإنسانية، خصوصاً الكبرى منها.

هكذا كان غوستاف لوبون المستشرق الفرنسي وقارئ الحضارات، الذي أنصف العرب، وألقى باللائمة على ويلات الاستعمار والإمبريالية الغربية، وحث على احترام التقاليد والطقوس وثقافات الشعوب الأصلية، ودعا إلى الدبلوماسية والحوار لتعزيز التناغم بين القوى الاجتماعية المختلفة، والتعاون بين الأمم والشعوب، كان يدعو، وحتى نهاية حياته، باستمرار الصرامة الأخلاقية مثل الولاء والتسامح، إلخ...

ختاماً هذا جهد المقل ونأمل أن نكون قد أنصفنا غوستاف لوبون كما أنصف الحضارة العربية في أعماله وبالله التوفيق.

المراجع[1]

مواقع على الشبكة العنكبوتية :

1. https://www.abjjad.com/author/2132901888/%D8%BA%D9%88%D8%B3%D8%AA%D8%A7%D9%81-%D9%84%D9%88%D8%A8%D9%88%D9%86/books
2. https://alarab.co.uk/%D8%BA%D9%88%D8%B3%D8%AA%D8%A7%D9%81-%D9%84%D9%88%D8%A8%D9%88%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%AA%D8%B4%D8%B1%D9%82-%D8%A7%D9%84%D8%B0%D9%8A-%D8%A3%D9%86%D8%B5%D9%81-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8
3. https://www.cairn.info/revue-mil-neuf-cent-2010-1-page-101.htm
4. https://www.persee.fr/doc/rfsoc_0035-2969_1981_num_22_3_3438
5. https://www.persee.fr/doc/mcm_1146-1225_1998_num_16_1_1189
6. http://citation-celebre.leparisien.fr/auteur/gustave-le-bon
7. http://www.denistouret.fr/ideologues/Le_Bon.html
8. http://www.notreislam.com/fr/rubriques/86-vie-du-prophete/339-un-beau-t%C3%A9moignage-de-gustave-le-bon-%C3%A0-l-islam-et-contre-l-europe

(1) نشير إلى أن معظم الكتب التي ألفها غوستاف لو بون وضعت على حدة في ملحق يلي قائمة المراجع مباشرة، عدا البحوث والدراسات، فقد وضع بعضها ضمن المراجع بالفرنسية.

9. http://www.cairn.info/revue-raisons-politiques-2007
10. http://howiyapress.com/8740-2/
11. https://www.appl-lachaise.net/appl/article.php3?id_article=1724
12. https://www.appl-lachaise.net/appl/article.php3?id_article=1724
13. https://www.appl-lachaise.net/appl/article.php3?id_article=1724
14. http://www.cairn.info/revue-raisons-politiques-2007-2-page-217.htm
15. http://www.larousse.fr/encyclopedie/divers/affaire_Dreyfus/11709
16. http://www.lepoint.fr/editos-du-point/alain-duhamel/gustave-le-bon-visionnaire-meconnu-07-04-2011-1316647_74.php
17. http://www.culture-islam.fr/contrees/maghreb/ernest-renan-lislamisme-et-la-science-1883
18. http://www.mohamedzitout.com
19. https://www.persee.fr/docAsPDF/psy_0003-5033_1905_num_12_1_5986.pdf
20. https://www.de-plume-en-plume.fr/membre/5259
21. https://fr.wikipedia.org/wiki/Soci%C3%A9t%C3%A9_d%27anthropologie_de_Paris
22. https://www.institutcoppet.org/psychologie-du-socialisme-gustave-le-bon-1898/
23. revue-mil-neuf-cent-2010-1-page-101.htm#no16
24. https://editions.flammarion.com/Qui-sommes-nous
25. https://www.cairn.info/revue-d-histoire-moderne-et-contemporaine-2010-4-page-185.htm
26. https://www.denistouret.net/ideologues/Le_Bon.html

مراجع عربية :

- محمد كُرد علي، الإسلام والحضارة العربية، مؤسسة هنداوي، 2017.
- غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، (ترجمة هاشم صالح)، دار الساقي، 1991.
- سيغموند فرويد (ترجمة جورج طرابيشي)، علم نفس الجماهير، دار الطليعة للطباعة والنشر(2006).
- حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013.
- فخري صالح «كراهية الإسلام– كيف يصوّر الاستشراق الجديد العرب والمسلمين» (الدار العربية للعلوم- ناشرون)، 2016.
- عماد عبد اللطيف، البلاغة والتواصل عبر الثقافات، هيئة قصور الثقافة القاهرة، 2012.

مراجع باللغة الفرنسية :

1. Alexandre Moatti, présentation du séminaire «Approche historique de l'alterscience », Paris, EHESS, 2008-2009
2. Alfred Stein, « Adolf Hitler und Gustave Le Bon. Der Meister der Massen- bewegung und sein Lehrer», Geschichte in Wissenschaft und Unterricht, 6, 1955, p. 362-368
3. in Boris Bajanov, Bajanov révèle Staline, Gallimard, coll. « L'Air du Temps », p. 107).
4. Benito Mussolini, Opera omnia, Edoardo et Duilio Susmel (eds.), Florence, La Fenice, 1957, vol. XXII .
5. Benoît Marpeau, entrée « Le Bon », in Claire Andrieux, Philippe Braud, Guillaume Piketty (dir.), Dictionnaire de Gaulle. Paris, R. Laffont, 2006

6. Benoît Marpeau, Gustave Le Bon : Parcours d'un intellectuel, CNRS Éditions, 2000.
7. Catherine Rouvier, Les idées politiques de Gustave Le Bon, PUF, Paris, 1986
8. Catherine Rouvier et Paul-Marie Coûteaux, Gustave Le Bon, clés et enjeux de la psychologie des foules, édition revue et augmentée, Terra Mare, coll. « LES CLASSIQUES», 2012
9. Cf. lettres conservées par l'Association des amis de Gustave le Bon.
10. Formule empruntée à Alexandre Moatti, Einstein. Un siècle contre lui, Paris, Odile Jacob, 2007
11. Freud, « Psychologie collective et analyse du moi », 1921
12. Freud S., Essais de Psychanalyse, Payot, Paris, 1972
13. Georges Lefebvre, Études sur la Revolution française, Revue Historique, T. 214, Fasc. 1 (1955), pp. 128-130
14. Henri Poincaré, «correspondance », sur Université de Lorraine(consulté le 1er juillet 2013).
15. Horkheimer M. & Adorno t., aspects of sociology, heinemann, London,1973
16. Korpa, Gustave Le Bon hier et aujourd'hui, Éditions France-Empire, 2011 (préface de Claude Imbert) (ISBN 9782704810871)
17. Laure Hillerin, La comtesse Greffulhe, L'ombre des Guermantes, Flammarion
18. Laurent Mucchielli, La Découverte du social : Naissance de la sociologie en France, La Découverte, 1er juillet 2010 , p. 40.
19. Le Bon Gustave (1841-1931), thèse dirigée par Etienne Fouilloux, Université Lumière-Lyon-II, décembre 1997. 4. Benoît Marpeau, « Les stratégies de Gustave Le Bon », Mil neuf cent, 9, 1991,
20. LE BON (Dr GUSTAVE — L'évolution de la matière. Un vol. de 389 p. avec 62 fig. Paris, Flammarion, 1905

21. Le Bon Gustave, un mythe du xxe siècle ?Par Olivier Bosc, Mil neuf cent. Revue d'histoire intellectuelle, 2010/1 (n° 28), Pages 101 - 120
22. Lord Mountbatten, Fourth Winston Churchill memorial lecture (Souvenir rapporté par), Université de Berne, mars 1970
23. « L'influence de l'éducation et des institutions européennes sur les populations indigènes des colonies », Revue scientifique, 27 août 1889 .
24. Michaud, J.F. 1852. History of the Crusades. Translated by W. Robson
25. Marpeau Benoît. Les stratégies de Gustave Le Bon. In: Mil neuf cent, n°9, 1991. Les pensées réactionnaires
26. Olivier Bosc, « Un pionnier de l'alterscience. Gustave Le Bon (1841-1931) », communication à la séance du 16 décembre 2008.
27. Serge Moscovici, L'Age des foules, nouv. éd., Bruxelles, Éd. Complexe, 1985
28. Schumpeter J. capitalisme, socialisme, et démocratie, Paris, Payot, 1961
29. in Stéphane Courtois, Les Logiques totalitaires en Europe, Éditions du Rocher, 2006
30. Vincent Rubio, « Le regard sociologique sur la foule à la fin du xixe siècle », Mil Neuf Cent. Revue d'Histoire intellectuelle, no 28, p. 13-33.
31. Vincent Rubio, « La Psychologie des foules de Gustave Le Bon. Un savoir d'arrière-plan », Sociétés, Revue des sciences humaines et sociales, 2008/2, no 100.
32. Yvon Thiec,"Gustave Le Bon, prophète de l'irrationalisme de masse », Revue française de sociologie., XXII, 1981, 409-428
33. Yvon J. Thiec,"Gustave Le Bon, prophète de l'irrationalisme de masse", Revue française de sociologie, Vol. 22, No. 3, Sociologies Françaises au Tournant du Siècle: Les concurrents du groupe durkheimen (Jul. - Sep., 1981), pp. 409-428

ملحق

(بأعمال غوستاف لوبون من الكتب في جميع المجالات التي خاضها)

ت	العنوان بالفرنسية	السنة	العنوان بالعربية
1	La Brenne.	1860	لا برين
2	Nouvelle méthode simplifiée d'analyse chimique des terres.	1862	طريقة مبسطة جديدة للتحليل الكيميائي للأرض
3	Mort apparente et inhumation prématurées.	1866	الموت الظاهر والدفن المبكّر.
4	Le Choléra.	1867	الكوليرا
5	Traité pratique des maladies des organes génitaux urinaires.	1869	علاج عملي لأمراض الأعضاء التناسلية البولية.
6	Hygiène pratique du soldat et des blessés.	1870	النظافة العملية للجندي والجرحى
7	Physiologie de la génération de l'homme et des principaux êtres vivants.	1870	فسيولوجيا جيل البشر والكائنات الحية الرئيسية.
8	L'Histologie et	1872	علم الأنسجة

والتشريح تدرس من خلال توقعات الضوء.		l'anatomie enseignées par les projections lumineuses.	
الحياة. معاهدة علم وظائف الأعضاء البشرية.	1874	La Vie. Traité de physiologie humaine.	9
إحداثيات البوصلة	1878	Le Compas des coordonnées (nouveau céphalomètre).	10
على مدار الساعة في الغلاف الجوي.	1878	La Pendule atmosphérique.	11
الأبحاث التشريحية على قوانين الاختلاف في حجم الجمجمة.	1879	Recherches anatomiques sur les lois de variation du volume du crâne.	12
منظار جديد للتشخيص.	1879	Un nouveau chronoscope pour diagnostiquer.	13
دخان التبغ	1880	La Fumée du tabac.	14
الإنسان والمجتمعات.	1881	L'Homme et les sociétés.	15
رحلة إلى جبال تاترا.	1881	Voyage aux Monts-Tatras.	16
الفوجيين	1883	Les Fuégiens.	17
الحضارة العربية	1884	La Civilisation des Arabes.	18
رحلة إلى نيبال	1886	Voyage au Népal.	19

والمسح الفوتوغرافي .	1888	Les Levers photographiques.	20
دور اليهود في الحضارة.	1888	Rôle des Juifs dans la civilisation.	21
الحضارات الأولى للشرق	1889	Les Premières civilisations de l'Orient	22
حضارة الهند	1893	Les Civilisations de 1'Inde.	23
القوانين النفسية لتطور الشعوب.	1894	Lois psychologiques de l'évolution des peuples.	24
سيكولوجية الجماهير	1895	Psychologie des foules.	25
سيكولوجية الاشتراكية	1898	Psychologie du socialisme.	26
علم النفس التربوي	1902	Psychologie de 1'éducation.	27
تطور المادة.	1905	L'Évolution de la matière.	28
تطور القوى.	1907	L'Évolution des forces.	29
ولادة وإغماء المادة.	1907	La Naissance et l'évanouissement de la matière.	30
علم النفس السياسي.	1910	Psychologie politique.	31
الآراء والمعتقدات.	1911	Les Opinions et les croyances.	32
الثورة الفرنسية	1912	La Révolution	33

		française.	
الأمثال من الوقت الحالي.	1913	Aphorismes du temps présent.	34
حياة الحقائق	1914	La Vie des vérités.	35
التدريس النفسي للحرب الأوروبية.	1915	Enseignement psychologique de la guerre européenne.	36
العواقب الأولى للحرب.	1917	Premières conséquences de la guerre	37
بالأمس والغد. أفكار قصيرة.	1918	Hier et demain. Pensées brèves.	38
علم نفس العصر الجديد.	1920	Psychologie des temps nouveaux.	39
اختلال توازن العالم.	1923	Le Déséquilibre du monde.	40
عدم اليقين في الوقت الحاضر.	1924	Les Incertitudes de 1'heure présente.	41
التطور الحالي للعالم والأوهام والحقائق.	1927	L'Évolution actuelle du monde, illusions et réalités.	42
القواعد العلمية لفلسفة التاريخ.	1931	Bases scientifiques d'une philosophie de 1'histoire.	43